مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الرابع ـ المجلد الثامن والثلاثون

بغـــــداد

ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ ـ كانون الاول ١٩٨٧ م

الأندلس وما جاورها

تاريخ الأندلس قبل الفتح الاسلامي
وفي ايامه الأولى

اللواء الركن محمود شيت خطاب

القسم الثاني
١ ـ في أوروبة وإفريقية

ا ـ البرابرة :

أطلق اليونان والرومان على جميع الشعوب سواهم اسم : البرابرة ، ثم خُصّت به شعوب بدأت تنتشر في اوروبّة منذ القرن الثالث الميلاديّ ، بعد أن كانت قد غادرت مواطنها الأصليّة في اواسط آسية منذ فجر التاريخ على الأغلب ، وكان موطنها الأصلي الهند والتركستان ، وقد غادرت موطنها قبل الميلاد ببضعة قرون ووصلت الى شمالي اوروبة والى تخوم اوروبّة الشرقية .

واستطاع اليونان والرومان أن يردّوا تلك الحشود البربريّة المتوحّشة عن تخوم إمبراطوريتيهم : الأمبراطورية الرومانية الشرقيّة (البيزنطيّة) والأمبراطورية الرومانية الغربيّة ، زمناً طويلا ، ثم حالوا بين تلك الحشود وبين اجتياز نهر الدانوب الى شبه جزيرة البلقان ، واجتياز نهر الراين الى شبه جزيرة إيطالية وإلى فرنسة وما ورائهما . ولكن لما بدأ الضعف ينخر في جسم هاتين الأمبراطوريتين بالنزف والتنازع وبالدهر ، منذ القرن الرابع الميلادي ، جرؤت تلك الحشود على الدنوّ من حدود تلك الأمبراطوريتين ، ومن اختراق تلك الحدود أيضا .

ب ـ اجناسهم وممالكهم :

وكان البرابرة أجناساً ، منهم الجرمان ، أكثر تلك القبائل عَدداً وأعظمها أثراً في تاريخ اوروبّة في العصور الوسطى . ومن أشهر القبائل الجرمانية قبائل القُوْط الذين انحدروا منذ أواسط القرن الثاني للميلاد ، من مساكنهم

يومذاك على شواطىء نهر الفستولا (١) ، إلى سهول أوكرانية ، شمال البحر الأسود . وهنا انقسم القوط إلى قسمين : قبائل عرفت بسكّان الغابات ، الذين عُرفوا فيما بعد باسم : القوط الغربيين . وقبائل عرفت بسكّان السهول الواسعة ، وهم الذين عُرفوا فيما بعد باسم : القوط الشّرقيين . وكان نهر الدنيستر يفصل بين مساكن الفريقين .

وكان مقام القوط الغربيين بين مصّب نهر الدنيستر ومصّب نهر الدانوب، على حدود البلقان مباشرة . سبباً لنشر الدين المسيحي بينهم . ولكن على يد الدُّعاة الأريوسيين ، ولذلك تَقَبَّل القوط الغربيون المذهب الأريوسيّ،وهذا المذهب الذي أوجده الأسقف الأسكندري أريوس في سنة (٣١٠ م) ، يجعل المسيح عليه السّلام إنساناً كاملاً ، وينفى عنه الألوهية ، ويقول بأنّ الله خلقه من لاشيء . ولهذا أوصى النبيّ صلى الله عليه وسلّم برسالته النبوية إلى هِرَقل عظيم الرّوم بمعتنقي هذا المذهب خيرا . فقال في رسالته : « فأن توليتَ فعليك إثم الاريسيين ... » (٢) .

ج ـ وصولهم إلى اوروبة :

وفي مطلع القرن الخامس الميلادي ، كان عدد من القبائل الجرمانية قد انتشرت في غربي اوروبة : في فرنسة وإسبانيا . أما الفاندال ، فكانوا قد انحدروا من مساكنهم بين نهر الفستولا ونهر الأدور(٣) (Oder) ، إلى المنطقة التي تعرف اليوم باسم : بافارية . جنوبي شرقي ألمانية ، ثمّ إنهم جاءوا إلى اسبانيا ، وفيها سكن الفاندال في منطقتين : في رقعة ضيّقة في شمالي

(١) الفستولا : نهر بولونية ، تقوم عليه صوفيا عاصمة بولونية .
(٢) انظر التفاصيل عن الاريسيين فى كتابنا : السفارات النبوية ، ومقدمة كتابنا : سفراء النبيّ صلىّ الله عليه وسلم .
(٣) االأودر : نهر فى شرقىّ المانية ، يفصل اليوم بين شمال المانية وشمالى بولونية .

غربي إسبانيا . وفي رقعة واسعة في جنوبي اسبانيا . وكذلك كان السوابيون(٤أ) وهم شعب جرمانيّ أيضا ، قد نزلوا في شمالي غربي إسبانيا جنوب منازل الفاندال الشمالية .

د ـ القوط الغربيون فى ايطاليا :

أما القوط الغربيون ، فكانوا لا يزالون في شرقي اوروبة ينازعون أباطرة المشرق : الرُّوم البيزنطيين ، فقد هاجموا البلقان ، وخاضوا ضد الرّوم معركة أدرنة سنة (٣٧٨ م) وانتصروا عليهم ، وكان القوط الغربيون يزدادون مع الأيام قوّة . وفي سنة (٣٩٥م) انقسمت الأمبراطورية الرومانيّة إلى قسمين : شرقيّاً وغربيّاً ، وكان ذلك من علامات تطرّق الضعف إليها ، وقدّم القوط الغربيون للرئاسة عليهم زعيماً منهم اسمه الأريك (٣٩٥ ـ ٤١٠ م) ، ثم أخذوا يبحثون عن أرض يستقرّون فيها لينشئوا عليها ملكاً لهم . وتغلب القوط الغربيون على الرّوم في البلقان مراراً ، ولكنهّم كانوا يودّون دائماً النزول في إيطالية نفسها . وقطع الأريك بقومه الألب سنة (٤٠١ م) ، وسار إلى رومة ، ولكنّ الرومان أقنعوه بالرجوع عنها ، بعد أن خلعوا عليه لقب : قائد الجند . وعقدوا معه معاهدة . وانسحب الأريك من إيطالية . ليعود إليها بعزم أشد في صيف سنة (٤٠٣ م) ، وليغزوها ويقضي على سلطانها . ولكن الأريك توفي في تلك السنة ، فخلفه زعيم آخر اسمه : أدولف . كان صهر للأريك . ونزل أدولف بقومه جنوبي غربي فرنسة ، وكان الحكم في القوط الغربيين لايزال الى ذلك الحين رئاسة بالعصبيّة ، ولم يكونوا قد أسسوا لهم دولة بعد . وفي سنة (٤١٤ م) ، دخل القوط الغربيون إلى إسبانيا .

---

(٤) السوابن أو الشوابن : قبائل جرمانية عرفت مساكنها منذ القرن الثالث الميلادى ، فى جنوبى غربى المانية ، بين نهر الراين ونهر النيكر (Necker) ونهر الدانوب (نهر الطونة) .

وتوفي أدولف في آخر سنة (٤١٥ م) ، فخلفه فاليا (٤١٥ – ٤١٩ م)، وأسّس للقوط الغربيين دولة جعل عاصمتها تولوز (٤) (٤١٩ م) في جنوبي فرنسة . ولما رأت رومة أنّ القوط قد قوُوا كثيراً ، واصبحوا لها مصدر قلق دائم، لم تجد بدأ من مصانعتهم والرضا باستقلالهم . فأقرّتهم على النزول في جنوبي فرنسة . على أن يتخلوا عن سائر الأراضي التي استولوا عليها .

هـ – في إسبانيا :

وكان على القوط الغربيين يومئذٍ ، ملك قدير ، هو ثيودوسيوس الاول (٤١٩ – ٤٥١ م) ، فحاسن السوابيين ، واقتسم معهم السيطرة على إسبانيا ، ثم سكت عن استيلائهم على منازل الفاندال الشمالية ، بينما كان هو يتوسّع في الجنوب . ويدفع الفاندال عن إسبانيا كلّها .

و – الفاندال في إفريقيّة :

وفي أيام غونداريك بن غوديغيل (٤٠٦ – ٤٢٨ م) ملك الفاندال ، اشتدّ ضغط القوط الغربيون في إسبانيا على الفاندال . وأخذ الفاندال منذ ذلك الحين بمغادرة إسبانيا ، فنزلوا أول ما نزلوا في الجزائر الشرقيّة (٤٢٣ م) . فلما توفي غونداريك خلفه أخوه غايسيريك اوغانسيريك (٤٢٨ – ٤٧٧ م) .

في هذه الأثناء . كان النزاع يعصف في الأمبراطوريّة الشرقية ، كما كان الضعف قد أقعد الأمبراطورية الغربية . كان النزاع الديني بين الأريوسيين وبين الكنيسة الجامعة (٥) على أشدّه في كلّ مكان ، في شرقي أوربة ، وفي غربيّها . وكان الوطنيون من أهل إفريقية ثائرين على الأمبراطورية الغربية ، فتوقف ورود القمح الأفريقي إلى رومة . وهُدّدت رومة بمجاعة ، ثم إنّ الدفاع الروماني كان قد ضعف مع شيخوخة رومة ، ويبدو فوق هذا كلّه . أن نزاعاً نَشِبَ بين بونيفاسيوس الحاكم العسكري في إفريقية ، وبين

(٥) تولوز Toulouse : ويسميها قسم من المؤلفين : طلوزة ، وتولوشة ، وطولوشة ، وهي مدينة طولوز في جنوبي فرنسة .

(٦) الكنيسة الجامعة : القائلون بأنّ المسيح هو الله بالذاتِ ، خصوم الاريوسيين .

والنتينيان الثالث إمبراطور رومة (٤٢٥ – ٤٥٥ م) ، فيقال : إنّ يونيفاسيوس عمد إلى استدعاء غايسيريك للنزول في إفريقية ، إغاظة لوالنتينيان .

وفي أيار (مايو) من سنة (٤٢٩ م) ، أبحر غايسيريك من جزيرة طَريف (٦) في نحو ثمانين ألفاً من قومه ، فيهم نحو ألف وخمسائة مقاتل . ويبدو أنّ بونيفاسيوس قاومهم في المغرب الأوسط ، بجيش جمعه على عجل سنة (٤٣٠ م) ، أو رياءً ، واستطاع غايسيريك أن يستولي على الشاطىء الأفريقي بعد مقاومة . ومع أنّ الفاندال فقدوا عدداً كبيراً من قومهم في هذه المغامرة ، إلاّ أنّهم قلّصوا حكم الرومان عن إفريقية. ووجد الأمبراطور والنتينيان نفسه عاجزاً عن ردّ الفاندال ، فعقد معهم معاهدة (١١ شباط – فبراير – ٤٣٥م) أقرهم فيها على النزول في المغرب ، على أن يتطوّعوا في جيش الأمبراطورية .

واستقرّ الفاندال في المغرب ، دون أن يتمكن الرومان من فرض نصوص معاهدتهم على الفاندال ، للضعف الذي كانوا فيه ، فهاجم غايسيريك قرطاجنّة وفتحها (١٩ تشرين الأول – أكتوبر – ٤٣٩ م) من غير أن يلقى مقاومة تذكر . . وأعلن غايسيريك نفسه ملكاً في قرطاجنة ، واتّخذها عاصمة له . ثم إنّه تشدّد في سياسته الدينية ، فأبعد الكاثوليكيين من الأشراف ورجال الدين عن البلاد ، واستعبد العامة من الكاثوليكيين ممن لم يرضوا مغادرة البلاد ، أو لم يكونوا قادرين على مغادرتها . وكذلك صادر أموال الكاثوليكيين وأملاكهم ، وأعطاها للأريوسيين .

وفي سنة (٤٤٠م) ، هاجم غايسيريك جزيرتي سردانية وصقليّة ، فبعث الروم البيزنطيون أسطولاً لاستقاذهما منه . فلما وصل ذلك الأسطول إلى صقليّة ، اضطرّ الروم إلى ردّه ، لأنّ الهون والفرُس كانوا قد أخذوا يهاجمون تخوم الأمبراطورية ، ثم اضطرّ والنتينيان الثالث إلى عقد معاهدة جديدة مع غايسيريك (٤٤٢م) ، يعترف فيها بسيادة الفاندال الكاملة على الشّاطىء الأفريقيّ .

(٧) Tarifa, Traducta Julia

وعاد القوط الغربيون إلى محاسنة الفاندال والسوابيين ، فقد أعطى ثيودوريك إحدى بناته إلى هاينريك بن غايسيريك (٤٤٢م) ، كما أعطى بنتاً أخرى من بناته إلى ملك السوابيين ، وذلك قبل موته بعامين فقط .

أما العداوة بين الفاندال والأمبراطورية الرومانية الغربيّة فكانت بازدياد ، ففي سنة (٤٥٥ م) اقتحم غايسيريك مدينة رومة وأباحها لجنده أربعة عشر يوماً . وفي العام التالي استولى على جزيرة سردانية ، ثم استولى على جزيرة صقليّة في سنة (٤٦٩م) .

ز ـ سقوط رومة :

وفي هذا الأثناء ، كانت الأمبراطورية الرومانية في الغرب قد ضعفت وتوالى على عرشها أباطرة ضعاف كسالى ، فأخذ القادة الجرمان يعزلون منهم مَن شاءوا ويولّون مَن شاءوا . وكان في الحرس الأمبراطوري المرابط في رافنّا (٧) قائد اسمه آدوفاكر (٨) . ورأى آدوفاكر حال الأباطرة والأمبراطورية فخلع رومولوس أغوسطولوس آخر أباطرة الرمان ، وأعلن نفسه ملكاً على إيطاليا سنة (٤٧٦م) ، ثمّ كتب إلى زينون إمبراطور القسطنطينيّة يخبره بما فعل . ويقرّ بسلطته عليه ، فلم يجد زينون بداً من إقرار آدوفاكر على عرش رومة كرْهاً . وهكذا انقسمت أوروبة إلى قسمين : قسم شرقيّ هو الأمبراطورية البيزنطية . وقسم غربيّ نشأت فيه الدولة الجرمانية المختلفة التي كانت منها الدول الأوربيّة الحديثة . فكانت سنة (٤٧٦ م) تاريخاً لسقوط رومة ولا نقراض الأمبراطورية الرومانية الغربيّة ولنهاية العصور القديمة وبدء العصور الوسطى .

---

(٨) .Ravenna

(٩) .Odoacer, Odowakar, Otacher

ج ـ مقتل آدو فاكو :

وحكم آدوفاكر مملكته بعد سقوط رومة بالعدل والحلم ، ثمّ وسع رقعة ملكه لما استولى على دالماسية ، على الساحل الغربيّ من شبه جزيرة البلقان وهال ذلك الأمبراطور زينون ، فدفع ثيودوريك زعيم القوط الشرقيين إلى (الهجرة بقومه من شبه جزيرة البلقان إلى إيطاليا ، وعيّنه حاكماً عسكرياً عليها . وهكذا يكون زينون قد تخلّص من القوط وخلق لخصمه آدوفاكو منافساً قوياً ، وذلك في سنة (٤٨٨م). وفي السنة التالية اشتبك آدوفاكو وثيودوريك في حرب ، انهزم فيها آدوفاكو ، فلجأ إلى مدينة رافنّا وكانت حصينة جداً . وبعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، اضطر آدوفاكو إلى الاستسلام ، فاستأمن من ثيودوريك ، ولكنّ ثيودوريك غدر بادوفاكو وذبحه بيده ، في منتصف آذار — مارس — من سنة (٤٩٣ م) ، ثمّ تتبّع أصحابه بالقتل واحداً واحدا .

ط ـ اضطراب أحوال الفاندال :

ولمّا توفيّ غايسيريك ملك الفاندال ، في ٢٥ كانون الثاني — يناير — من سنة (٤٧٧ م) ، لعبت الفوضى في مملكته زماناً طويلاً . ويرجع السبب الأول في ذلك ، إلى أنّ البربر (الأيمازيغ) الذين لم يكونوا راضين عن حكم الرومان ، لم يكونوا راضين أيضاً عن حكم الفاندال . ففي أيام هيلديريك (٥٢٤ — ٥٣٠ م) ، وفي سنة (٥٢٥ م استطاع البربر أن يستعيدوا ساحل طنجة وأن يحموا جنوبيّ المغرب الأوسط كلّه ، وانهزم هيلديريك أمام البربر هزائم منكرة .

وأثارت هذه الهزائم نبلاء الفاندال ، فخلعوا هيلديريك ، وقدّموا عليهم زعيماً اسمه : غيلمير — ويقال غلماو و غيليمير — فخلع غيلمير هيلديريك وألقاه في السّجن ثم ملّك مكانه . واستنجد هيلديريك بيوستنيانوس الأول (٥٢٧ — ٥٦٥ م) ، فأن هيلديريك كان مشايعاً للرّوم وعلى مذهبهم ، بينما غيلمير كان أريوسيّاً . وأراد يوستنيانوس أن ينجد هيلديريك لأنه كان يطمع

في استرداد المقاطعات التي كانت قد تساقطت من الأمبراطورية الرومانيّة في غربيّ أوروبّة وشمالي إفريقيّة تحت سنابك البرابرة الجرمان . ولكنّ الاضطراب الذي كان سائداً يومذاك في الأمبراطوريّة الشرقيّة حال دون ذلك . ثم ساءت حال القسطنطينيّة خاصة ، ونشبت فيها فتنة سنة (٥٣٢ م) من (١١ – ١٨ كانون الثاني – يناير) سقط فيها ثلاثون ألف قتيل على الأقلّ ، وقال بعضهم : بل خمسون ألفاً . ورأى يوستنيانوس أنّ الأمر قد خرج من يديه ، وأنّ ملكه زائل لامحالة ، فأراد أن يهرب من القسطنطينيّة ناجياً بنفسه . غير أنّ زوجته ثيودورا ثبّتته واستثارت نخوته ، حتى عزم على التمكين لنفسه ولعرشه .

ولما هدأت الحال في القسطنطينيّة ، عاد يوستنيانوس إلى التفكير بشمالي إفريقيّة وبهيلديريك وغيلمير ، فأرسل حملة إلى شمالي إفريقيّة سنة (٥٣٣م) بقيادة أعظم قادته بليساريوس . فانهزم غيلمير ، ثمّ استسلم (آذار – مارس – ٥٣٤ م) ، وقضى يومذاك على مملكة الفاندال .

على أنّ القضاء على مملكة الفاندال في شمالي إفريقيّة ، لم يرد شمالي إفريقيّة إلى الأمبراطورية الرومانية الغربية ، ولا جعل شمالي إفريقيّة تستقرّ تحت سلطان الأمبراطوريّة الرومانيّة الشرقيّة ، ذلك لأنّ البربر استمرّوا في ثوراتهم على الرّوم . ومع أنّ الروم قد حاولوا إخضاع البربر في أوقات مختلفة ، في (٥٣٨ م و ٥٣٩ – ٥٤٤ م و ٥٤٦ – ٥٤٨ م) فأنّهم لم يستطيعوا أن يفرضوا على شمالي إفريقيّة سوى ظلّ خفيف من سلطانهم . وعلى عدد قليل من المراكز الساحلية فقط .

ى ـ القوط الغربيون فى اسبانيا :

ولما وثب ثيودوريك الأكبر ملك القوط الشرقيين في إيطاليا على آدوفاكر وذبحه ، أصهر إلى الفرنجة ، فتزوج بنت ملكهم كلوفيس ، وقيل : بل أخته . وقد غلّ هذا التقارب بين القوط الشرقيين وبين الفرنجة يد الرومان ،

ثمّ مكّن القوط الغربيين من التوسّع في غربيّ أوربّة ، إذ استطاعوا في مطلع القرن السادس للميلاد أن يحتلّوا بقيادة زعيمهم الأريك الثاني (٤٨٤ — ٥٠٧ م) معظم إسبانية . ولكن سرعان ما بدا النزاع بين الفرنجة وبين القوط الغربيين ، وأخذت مملكة القوط الغربيين تتّسع في إسبانيا وتضيق في فرنسة ، حتى تقلّصت عن فرنسة كلّها إلاّ رقعة صغيرة في ساحل البحر الأبيض . وحاول الفرنجة التقدّم إلى إسبانيا ، ولكنّ القوط الغربيين ردّوهم . وفي سنة (٥٠٧ م) نشبت معركة بين كلوفيس ملك الفرنجة وأريك الثاني ملك القوط الغربيين قرب مدينة بواتيه ، سقط فيها الأريك الثاني صريعاً . واستولى الفرنجة على ما بقي للقوط الغربيين من الأرض في جنوبي فرنسة ، واحتلوا عاصمتهم تولوز ، فنقل القوط الغربيون عاصمتهم إلى طُليطلة .

وكان لايزال للرّوم البيزنطيين سلطان خفيف على عدد من المدن الساحلية والداخليّة في إسبانيا ، فجعل القوط الغربيون ينتزعون منهم تلك المدن واحدة واحدة ، كما ضمّوا إليهم (٥٨٥ م) مملكة السوابيين ، وهكذا تم في أيام ليوفيغلد (٥٧٣ — ٥٨٦ م) توحيد المملكة القوطية .

ك ـ الفرنجة في فرنسة :

بدأت غزوات البرابرة لجنوبي فرنسة (الغال) في القرن الرابع للميلاد ، فقد غزاها القوط الغربيون والفاندال والهيطل (الهون) ، ثم غزاها الفرنجة في القرن الخامس الميلادي .

وأقام مبروفيك مملكة للفرنجة في جنوبي فرنسة (٤٤٨م) ، ثم لما توفى (٤٥٨ م) خلفه ابنه شيلديريك . وجاء بعده ابنه كلوفيس (١٠) ، فحكم واحدة وثلاثين عاماً (٤٨١ — ٥١١) وقاتل كلوفيس الرومان ، كما قاتل بعد ذلك القبائل الجرمانية النازلة في جنوبي فرنسة كلها وأسس فيها المملكة الفرنسيّة . واعتنق كلوفيس النصرانية ، وتقبّل المذهب الكاثوليكي من أوّل أمره ، قيل بأغراء من امرأته قلوطلد (١١) أو كلوتيلد .

(١٠) يسميه العرب : قلوديه ، انظر الروض المعطار (٢٧) .
(١١) الروض المعطار (٢٧) .

ولما مات كلوفيس تقسم أبناؤه الأربعة مملكته ، وأشهر أقسام المملكة هي :

أولاً : نوسترية (المملكة الغربيّة) ، وكانت تقع ما بين نهر اللّوار ومقاطعة بريتانية ، وما بين بحر المانش ونهر الموز .

ثانياً . أوستراسية (المملكة الشرقيّة) ، أو الجزء الشمالي الشرقي من فرنسة ، وكانت عاصمته مدينة متز (قاعدة اللّورين) .

وتنازع أولاد كلوفيس وأحفاده وتحاربوا ، فقوى النبلاء في ممالكهم ، ثمّ أصبح رؤساء النبلاء حجّاباً في بلاطات ملوك الفرنجة . ثمّ إنّ هؤلاء الحجّاب أخذوا يستبدّون بالحكم شيئاً فشيئاً ، إلى أن حجزوا على الملوك مرة واحدة ، وأصبح الحكم لهم على الحقيقة ، ولأولئك الملوك على المجاز .

ل ـ الهيطل (الهون) :

والهيطل (الهون) جموع آسيوية ، تتصل بأسلاف المغول والأتراك في النّسب البعيد . وهم قوم قصار أشداء عُتاة .

وفي أواسط القرن الرابع للميلاد ، كان الهيطل قد استقروا على التخوم الشرقية من قارة أوروبة . ثم إنهم هزموا القوط الشرقيين وسائر القبائل الجرمانية في شرقي أوروبة . واندفعوا غرباً حتى استقروا على الدانوب وبنوا إمبراطورية امتدت في القرن الخامس للميلاد من جبال القوقاس ونهر الدانوب إلى بحر البلطيق في الشمال .

وتمّت قوة الهيطل في أيام زعيمهم أتيلا (٤٤٥ ـ ٤٥٣ م) الذي قطع بهم نهر الراين وسقط على فرنسة . ولكن ميروفيك ملك الفرنجة تحالف مع القوط الغربيين وهزم الهون في معركة شالون التي تقع على نحو (١٥٠) كيلو متر من باريس جنوباً في شرق ، وذلك في سنة (٤٥١ م) .

واستطاع الهون أن يصلوا إلى أسوار القسطنطينية سنة (٤٥٨م) ، غير أن إمبراطوريتهم ، إمبراطورية أتيلا تقطّعت بعد موته إرْبا (١٢) .

م ـ الخلاصة :

هكذا الموقف العسكري والسياسي في أوروبة وإفريقية ، مع لمحات من الموقف العسكري والسياسي في إسبانيا ، سيرد تفصيلها وشيكا .

ويمكن أن نتلمّس بوضوح ، أن المقاتلين كانوا أشداء في قتالهم ، لهم خططهم التوسعية الظاهرة وطموحهم السياسي ، وكانت لهم قيادات قادرة تتميز بقابلياتها على التخطيط السليم والشجاعة والأقدام . وكانت الشعوب المتصارعة تتألف من قبائل لها ضبط القبائل وطاعتها وانقيادها لرئيسها انقياداً أعمى مادام يقودها إلى النصر ، فأذا قادها إلى الهزيمة تخلّت عنه وانقادت لغيره ، وهي تحارب بشجاعة وإقدام وضبط متين .

وكلّ تلك السِّمات من سمات القوّة لا من سمات الضعف ، على كلّ حال .

١ ـ في إسبانيا

ا ـ القوط الغربيون في اواخر ايامهم :

لما سقطت رومة سنة (٤٧٦ م) ، كان معنى ذلك زوال الأمبراطورية الرومانية الغربية من الوجود . وتحلّل جميع أتباعها المتبربرين (البرابرة) من الولاء لها . وبهذا استقلّ القوط الغربيون بأسبانيا ، وأعلنوا أنفسهم ملوكاً غير تابعين لأحد ، وكان زعيمهم يوريك (Euric) قد اتخذ لقب الملك فعلاً قبل ذلك بنحو تسع سنوات (سنة ٤٦٧ م) ، وهو يُعدّ لذلك مؤسِّس دولة القوط الغربيين في إسبانيا .

---

(١٢) استعنت بكتاب الأستاذ الدكتور عمر فروخ ـ العرب والأسلام فى الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط ـ (٢٥ ـ ٣٥) ـ ط ١ ـ بيروت ـ ١٣٧٨ هـ .

ب ـ دولة القوط الغربيين في إسبانيا :

وكان يوريك قد حرص منذ صارت إليه زعامة القوط ، على أن يمدّ سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يبسطه على إسبانيا كلّها ، ولم يتنازل إلى جانب ذلك عما كان لأسلافه من الأقاليم شمالي جبال البرت . وكان الرومان يعتبرون جنوبيّ فرنسة وشمالي إسبانيا وجزءاً كبيراً من غربيّها إقليماً واحدا ، فحرص يوريك أن تضمّ دولته هذا الأقليم . فاستولى على لُشْدَانية (البرتغال) وقرّر فيه سلطانه ، ومدّ حدود مملكته إلى الجنوب ، وأدخل فيها إقليم بيطى (الذي يعرف باسم بيتيكا) وولاية قرطاجَنّة الرومانية القديمة وهي الركن الغربي لشبه الجزيرة الأسبانية . وتابع جهوده في شمالي جبال البرت ، واستولى على آرل ومرسيليا . وبهذا أصبحت دولته تمتّد من أقصى الهضبة الفرنسية الوسطى . إلى طرف إسبانيا الجنوبي ، وحكم شعبين كبيرين هما : الغاليون الرومان (Gallo - romani) شمالي البرت ، والأسبان الرومان (Hispano - romani) جنوبيّها . وكانا شعبين متحضرين ، يشتغل معظمهما بالزراعة ، ويزيدان على القوط الغربيين مرّات عديدة ، وكان معظم أهلهما مسيحيين كاثوليك . يسيطر عليهم قساوسة خاضعون لسلطان رومة وأسقفها الكبير : البابا .

وكان القوط الغربيون مسيحيين أريوسيين ، أي أنّهم لا يعتقدون بألوهية المسيح . ولا يعترفون للقساوسة بحقّ الوساطة بين الله والناس ، ولا يجعلون للعذراء مكاناً متميزاً في العقيدة . وكان لهم أسلوبهم الخاص في العبادة ، فلم يلبث السكان الأصليون من غاليين (فرنجة) وإيبيريين (إسبان) أن نفروا من حكمهم . واجتهد القساوسة في تقوية شعور النّفور هذا ، لأنّ القوط كانوا ينكرون عليهم أي سلطان روحيّ على الناس ، واشتدّ هذا النفور مع الأيام ، بسبب ما كان ينزله القوط على القساوسة من اضطهاد ، وظلّ مركزهم بين رعاياهم مضطرباً مزعزعا ، فلما نهض كلوفيس ملك الفرنجة وأخذ يمدّ

سلطانه نحو الجنوب . سارع القساوسة لتأييده لأنّه كان كاثوليكياً ، وانضم إليه الغال الرومانيون ، فاستطاع أن يزيح القوط إلى الجنوب ويجليهم عن تولوز الذي ظلّوا يحكمونه أمداً طويلا ، ثم انتصر عليهم انتصاراً حاسماً في شمالي بواتيه سنه (٥٠٧ م) كما ذكرنا وأجلاهم عن جلّ ما كان في سيطرتهم من أرض جنوبيّ فرنسة ، فلم يبق لهم إلاّ إقليم سبتمانية المتاخم لجبال البرت من الشمال ويمتدّ حتى نهر الرون وعاصمته نربونة .

وبهذا اقتصر سلطان القوط الغربيين على إسبانيا، وأخذت علاقة إسبانيا مع بقيّة العالم الأوروبيّ الواقع إلى شمال جبال البرت تفتر . ولما وحّد القوط الغربيون شبه الجزيرة الأسبانية كلّها تحت سلطانهم ، أخذت إسبانيا تظهر كوحدة سياسية وجنسيّة للمرة الأولى في التاريخ . وذلك أمر له خطورته ، لأنّ الأغريق لم يعرفوا منها إلاّ الغرب وبعض الجنوب ، ولأن الرومان كانوا يقسّمونها ولايات مختلفة لاعلاقة بين بعضها . أما القوط فقد اعتبروا شبه الجزيرة الأسبانية كلّها قطراً واحداً ، واتخذوا لهم عاصمة تقع في وسط شبه الجزيرة ، هي : طُليطلة ، ولعلّ أظهر أثر لاستقرار القوط في طليطلة ، هو تحوّلهم إلى إسبان ، في وقت قصير ، لأن المقيم في طليطلة ، تنقطع الصّلات بينه وبين ما يلي البرت وما يلي بحر الزقاق ، ويتأقلم ويصبح إسبانيّا . أما المقيم في قُرطبة ، فتظل صلته بأفريقية وما يتّصل بها من بلاد الشرق ، أوثق وأظهر من صلاته بجليْقيّة ونواحي جبال البرت .

واستطاع القوط من عاصمتهم طليطلة ، أن يستولوا على إسبانيا كلّها ، ولكن سلطانهم لم يستقر في البلاد أوّل الأمر ، بسبب ماثار بينهم وبين أهل إسبانيا من منازعات دينيّة ، وبسبب ماشجر بين أمرائهم من خلافات . وطمع ثيودوريك ملك القوط الشرقيين في عرش إسبانيا ، فغزاها وأقام حفيداً له على عرشها ، ولكن لم يلبث أحد قوّاد القوط الغربيين الأقوياء أن ثار بهذا الدّخيل ، وأعلن نفسه ملكاً على إسبانيا ، بفضل معاونة حربيّة أمده بها جستنيان إمبراطور بيزنطة في سنة (٥٥٤ م) ، وانضم إليه أهل البلاد من الأسبان الرومان الكاثوليك ، واحتل المنطقة الواقعة بين نهر الوادي الكبير ونهر جُكَرْ (نهر شقر) ، وأنفصل هذا الأقليم عن طليطلة .

وكان آخر ملوك القوط الغربيين الأريوسيين هو : ليوفيجيلد(Liuvigild) — (٥٦٨ — ٥٨٦ م) ، وكان محارباً مقداماً ظلّ يحارب الكاثوليكيين طول حياته . وخلفه ابنه ريكاريدو (Recaredo) ، فاستبان أنّه لا صلاح لدولة القوط في هذه البلاد ، إلاّ إذا تخلّى ملوكها عن المذهب الأريوسيّ . وتخلّى هذا الملك عن المذهب الأريوسي ، وأعلنه في مجمع طليطلة الديني سنة (٥٨٧م) : اعتنق الكاثوليكية هو وأهل بيته ، وتبعه الأمراء وكبار أهل المملكة . وبهذا أصبحت الكاثوليكية هي الديانة الرسمية في إسبانيا من ذلك الوقت . وهذا الحادث الخطير . سيظل مؤثراً في التاريخ الأسباني كلّه . فأن الكاثوليكية تأصّلت في أهل البلاد مع الزمان ، وزادها قوّة ميل الأسبان للتشدّد في الأيمان ، والتّعصّب لكلّ ما يؤمنون به ، فأصبحت إسبانيا معقلاً من أمنع معاقل الكاثوليكية ، وكان لهذا أثر بعيد جداً في حياة الأسبان ، وفي مجرى تاريخهم كلّه .

وأعقب هذا التّحول إلى الكاثوليكية اعتبار اللاتينيّة اللغة الرسمية في البلاد . ووثق الصّلات بين إسبانيا والبابويّة . وقد تفانى خلفاء ريكاريدو في الولاء للبابويّة تفانياً شجّع البابوات على بسط نفوذهم الديني — بل السياسي — في البلاد . وبدأ يفد على البلاد هذا الفيض المتصل من قساوسة الكاثوليك ورهبانهم ، وأصبحت طليطلة أسقفية يقيم فيها أسقف كبير يمثّل سلطان البابا ونفوذه ، وأيدّه الشّعب الأسباني الروماني الذي لم يتخلّ عن الكاثوليكية بعد ذلك . ومن هنا نفهم السرّ ، في أنّ نفوذ أسقف طليطلة لم يقلّ في وقت من الأوقات في التاريخ الأسباني المسيحي عن نفوذ الملوك . إن لم يزد عليه في كثير من الأحيان . وكان تحوّل القوط إلى الكاثوليكية الخطوة الفعّالة الأولى لامتزاج الشعبين القوطي والأسباني الروماني . فقد ظلاّ متباعدين ما اختلفت عقيدتاهما الدينيتان . فأمّا وقد اتّفقا في العقيدة . فقد انفتح الباب أمام الامتزاج ، ولكنّه لم يتمّ إلاّ على صورة مصغّرة جداً ، لأنّ القوط حرصوا على أن يحتفظوا لأنفسهم بمركز الشّعب الحاكم .

وكانت الملكيّة القوطيّة انتخابيّة ، أي أنّ نفراً من كبار أهل المملكة والأمراء ، كانوا يجتمعون بعد وفاة الملك لاختيار ملك من بين أظهرهم . فكان هذا النظام مدعاة لأثارة المنافسات بين الأمراء وكبار القوط ، فلا غرابة في أن يكون تاريخ القوط في إسبانيا سلسلة من المؤامرات والحروب والاغتيالات .

بيد أننا ينبغي أن نستثنى من سلسلة ملوك القوط نفراً أجمع المؤرخون على أنّهم كانوا قادرين صالحين ، وأنهم قدموا للبلاد خدمات حربية وعمرانية بعيدة الأثر ، مثـل : ششبرت (Sisiberto) — (٦١٢ — ٦٢١ م) الذي استـولى على جميع أرجاء إسبانيـا ، وشنداسفنتو (Chindaswinto) — (٦٤٩ — ٦٧٢ م) الذي ألغى التفرقة بين أفراد الشعب ، وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج فيه القانون الروماني القـديم الذي كان قد سنّه الملك ألاريك الثـاني ، والقـانون القـوطي الـذي وضعـه يوريك ، مما قرّر السّلام بين أهل المملكة ، وجنّبها مصاعب وخلافات شتى .

ولعلّ أكبر ملوك هؤلاء القوط هو وامبا (Wamba)—(٦٧٢—٦٨٠م)، فقد كان أميراً عظيم الهمة ، استطاع أن يقرر سلطانه فيما بقى للقوط من الممتلكات شمالي جبال البرت : قضى على ثورة خطيرة دبّرها هلدريك كونت نِيْمَهْ (نيم) ، وأخمد ثورة أخرى دبّرها باوْلُس أمير سبتمانية للانفصال بها ، وحكم البلاد كلها حكماً رشيداً حازماً ، فأحبّه الناس والتفّوا حوله ، وبلغ من تعلّق الناس به أن أصبح اسمه وعصره أسطورة لا تخلو من الخوارق ، منها : أن وامبا وقف بين يدي الأسقف في الكنيسة لكي يلبس التاج ، فبينما هو في هذا الموقف الرّهيب ، إذا عمود من الدخان يتصاعد من رأسه ، تطير فيه نحلة من ذهب (١٤) . ومن الواضح أنّ ذلك لم يحدث ، ولكنه شائع في المصادر الأجنبية وبين القوط أيضا .

(١٣) Bellesteros, Rafael. op. cit. P. 37 — 39.

(١٤) Saavedra, op. cit. apendice P. 147

وقد انتهى حكم وامبا نهاية لا تخلو من غرابة وطرافة ، فقد احتال عليه أحد حاسديه ، ودس له مَنْ سقاه جرعة مخدّرة لم تلبث بعد أن شربها أن غاب في سبات عميق . وحسبه الناس قد مات ، وهيّئوه ليواروه التراب ، فبينما هم في ذلك ، إذ عاد إلى رشده . وبدلاً من أن ينهض لتأديب مَنْ ائتمروا به على هذا النحو الغريب . ترك العرش للطامعين ، وترهّب وقضى بقيّة حياته في الدير .

وعندما اعتلى غَيْطَشَة (وِتِزا : Achila) العرش في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة (٧٠٠ م) . كانت الأمور قد اضطربت بسبب المؤامرات التي كان كبار القوط يديرونها ، ولا نعرف حقيقة أمر هذا الملك ، لأنّ النصوص الباقية عنه تعطينا صوراً متناقضة عن شخصه وأسلوبه في الحكم ، والظاهر أنّ معظم النصوص الاسبانية تثني عليه . فقد حاول جهده أن يصلح الأمور ، فعفا عمّن كان والده أخيكا قد أساء إليهم . ومال إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القوط . فكرهه هؤلاء وعوّلوا على القضاء عليه وعلى حكمه . فأخذوا يثورون عليه في نواحي المملكة ، وأخذ يحاربهم ويحبط كلّ مؤامراتهم . فلما علت به السن ، عجز عن أن ينهض لكلّ واثب به مدبرٌ عليه . وتآمر عليه أهله . واستطاعت زوجة أن ترغمه على أن يعلن ابنه الصبي وَقِلَه (أخيـــلا Achila) . وأقامه حاكماً على الولايتين الناربونية والطركونية . وكان هذا الاعلان . حافزاً للطامعين في العرش من كبار القوط . إلى مضاعفة الجهد في التدبير على غيطشة . ومحاولة القضاء عليه وعلى دولته . ليخلو لهم العرش . ويفعلوا به ما يشاءون . ويبدو أنه لم يأل من جانبه في القضاء على كلّ محاولة يقومون بها . لأن النصوص تحدّثنا أنه عاقب تيوفريدو دوق قرطبة بسمل عينيه . ونفى ثائراً أخر اسمه : بلايُه من البلاط (١٥) .

(١٥) وانظر المراجع المعطاة في Saavedra. op. cit. P. 29.

ويبدو أيضاً أنّه اساء الظنّ بيهود، فاضطهدهم وأوقع بهم في أواخر أيامه ، فقد اتّهمهم غيطشة بالتدبير عليه ، وبالتآمر مع مَن تسميهم النصوص الأسبانية : أهـل ما وراء البحـر (Lostransmarinos) ، ومعنى ذلك أنهـم اتّصلـوا بأعـداء القـوط في ما وراء البحـر ، أي خـارج إسبانيا .

ولسنا بأي حال بحاجة إلى البحث عن أسباب هذا الاضطهاد . لأنّ الأسبان كانوا طوال تاريخهم من أقسى الناس على مخالفيهم في الدين ، وعلى يهود بخاصة . ولكن يبدو أنّ غيطشة رجع عن سياسته في اضطهاد يهود في أخريات أيامه ، فتحدّث إلى كبار أهل الدولة فيما انتواه من العفو عن يهود . فأسخط رجال الكنيسة عليه . وأخذوا يغرون الناس به . حتى اشتدّ عليه سخط الناس . وتحدّث أهل البلاد . الرومان الأسبان في الوثوب به أو معاونة أوّل ثائر عليه (١٦) .

ومات غيطشة ميتة طبيعية في أواخر سنة (٧٠٨م) أو أوائل سنة (٧٠٩م). وكانت مختلف الطوائف تنتظر موته . وكان أفراد البيت المالك أنفسهم من أكثر الناس انقساماً وأشدّهم ميلاً إلى الخلاف ، ذلك لأنّ غيطشة ترك من بعده زوجاً طامعة في العرش، وأخاً لا يقل عنها طمعاً هو أُبّه (Oppa) ، وكان أسقفاً لأشبيلية ، وثلاثة بنين هم : أخيلا (رُمْله عند المقرى وابن القوطية وصحته وُقِلّه) وألمند (Olmundo) وأرطافازدُس أو أردبست (أرطباس . أرطبان) . وتضيف بعض الروايات شخصاً آخر هو سيسبرتو (سسبرت . سبرى . سبرة في النصوص العربية) وتزعم أنّه كان أخاً لغيطشة أو ابناً له .

---

(١٦) Saavedro. op. cit. P. 30.

ولم يرض نفر من كبار القوط بالخضوع لصبي مثل أخيلا ، وتخوّف كثير منهم من مطامع الوصي رخشندش واستبداده ، فامتنع مَن أقام منهم في طليطلة عن الطّاعة ، واستقل بالأطراف والنواحي منهم من كان مقيماً فيها ، ودارت رحى الحرب بين المتنافسين . وتعذر على الملكة وابنها المقام في طليطلة ففرا منها ، واستمرت هذه الفوضى نحو سنة ونصف السنة ، واستطاع الوصي أن يجمع نفراً كبيراً من الأنصار . وتحبّب إلى عامة أهل البلاد الرومان الأسبان من أهل المزارع والمدن واستطاع أن يكسبهم إلى جانبه . وبدا لخصومه أنه مستطيع القضاء على الفتنة وإقرار الحق لذويه عما قريب . فاجتمع منهم نفر واثتلفوا . واعتبروا أنفسهم : (مجلس شيوخ وكبراء) له الحق في أن يقرر في شؤون دولة القوط كما يرى . ثم اختاروا واحداً منهم اسمه : رودريكو . أو رودريك . أو رودريجو : لُذَريق . وانتخبوه ملكاً خلفاً لغيطشة . واستعدّوا لنصرته والقضاء على منافسيه بحد السيف .

وتجمع النصوص كلّها ، على أنّ هذه الجماعة التي بايعت لذريق . كانت جماعة من كبار القوط وأعيانهم وأنّهم أرادوا باجتماعهم هذا ، إنقاذ دولة القوط وتقويم ما انهار من بنيانها . فأذا أضفنا إلى ذلك ما سبقت الأشارة إليه . من أن رخشندش أراد أن يستعين بالرومان الأسبان ليثبت أمر أخيلا . استطعنا أن نستنتج أنّ المسألة لم تكن مجرد خلاف على العرش بين زعماء القوط . بل كان فيه لون من ثورة أهل البلاد على القوط ، ورغبتهم في التخلص من كبرائهم ونبلائهم . ولعل هذا الاستنتاج . يتيح لنا أن نقرر ما تحاول الكثرة الغالبة من مؤرخي الأسبان ـ قدامي ومحدثين ـ نفيه وإنكاره ، وهو أنّ دولة القوط . لم تكن في نظر أهل البلاد ، دولة قومية . بل ظلّت في نظر غالبيتهم دولة أجانب . لقى الناس في ظلّهم كثيراً من الأذى . وحاولوا التخلّص منهم مرات كثيرة .

جـ ـ لذريق :

الخلاف شديد حول أصل لذريق ، فمن قائل : إنه كان زعيماً قوطياً كبيراً ذا علم بأمور الحرب والسّلم ، ومن قائل : إنّه ينحدر من أصلاب ملكيّة ، وإنّ جده الملك شِنداسفنتو . ومن قائل : إنه ابن تيود فريدو دوق قرطبة الذي كان غيطشة قد عاقبه على ثورته عليه بسمل عينيه . ومهما يكن من أمرٍ . فأن المراجع الأسبانية اللاّتينية القديمة ، تُجمع على أنّه كان رجلاً قادراً ، وأنه كان قبل ادّعائه العرش حاكماً لولاية بيتيكا . وأن الذين بايعوه على العرش فعلوا ذلك في قرطبة عاصمة ولايته .

ولم يسر لذريق إلى طليطلة مباشرة بعد إعلانه نفسه ملكاً ، بل تريث بعض الوقت ليتيسر له جمع أنصاره وملاقاة رَخَشَندش ورجاله في موقعة حاسمة . وكان قد أعلن نفسه ملكاً في ربيع سنة (٧١٠ م) ، قبل الهزيمة المسماة عادة بهزيمة : جواد اليتي (وادي لَكّهْ) بسنة ، وكان ذلك في السنة الخامسة من حكم الوليد بن عبدالملك بن مروان في دمشق ، كما يقول : (النص اللاتيني المجهول المؤلّف) . ويذهب راوية آخر ، إلى أنه ذهب إلى بَطَلْيَوْس ، دون أن يذكر لنا السبب في الذهاب إلى ذلك البلد البعيد . والثابت أنه سار إلى طليطلة بعد أشهر من إعلان نفسه ملكاً على رأس جيش كبير . فيه جلّة قوّاد القوط ونبلائهم ، وهزم رَخَشَندش في واقعة حاسمة ، قتل فيها هذا الأخير وتفرّق أتباعه . أما أبناء غيطشة ، فلم يجدوا مفراً من مغادرة البلاد فراراً من الغاصب . ففرّوا إلى إفريقية . وصادر لذريق أملاكهم معتبراً إياهم ثائرين على العرش . والقانون القوطي يقضي بمصادرة أملاك كل ثائر على العرش .

ويبدو أن لذريق ، ظل يخشى طيلة أيام حكمه القصيرة ، عودة أبناء غيطشة إلى البلاد ، ومحاولة استعادة عرشهم بمساعدة أنصارهم الكثيرين ، ومن ثَمّ حرص على أن ينفّر الناس منهم ، بالمبالغة في تصوير أعمال أبيهم ومظالمه ، وأعانه على ذلك القساوسة ، لأن غيطشة كان لا يجيبهم إلى ما تصبو إليه نفوسهم من القضاء المبرم على يهود . فلا غرابة أن نجد عند معظم المؤرخين الأسبان اللاتين صوراً بغيضة جداً لهذا الملك وأولاده ، وما كانوا يدبّرون للبلد وأهله من سوء . وقد تصدى نفر من المؤرخين الأسبان المحدثين للدفاع عن غيطشة وأبنائه ، بيد أن هذا الدفاع عن غيطشة وأبنائه ، والأصرار على على تبرئة لذريق من كلّ عيب ، وتصويره في صورة بطل وطني جاهد المسلمين من بلاده . وبذل كلّ ما يملك لينجو ببلاده من خطرهم ، كلّ هذا الجهد لا يمنعنا من تعرّف شخص لذريق وأحوال عصره تعرّفاً معقولاً ، هو أقرب ما يكون إلى الصّواب .

ومن الواضح . أنّ الرّجل كان يشعر باضطراب الأمر عليه ، وأنّه ظلّ حياته متخوفاً من وثبة تكون من أحد أعدائه الكثيرين ، لانّ هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد غيطشة وحدهم ، بل كانوا في واقع الأمر جلّة الشعب الأسباني الروماني ويهود إسبانيا .

ومصداق ذلك . أنّ لذريق لم يكد الأمر يستقر له ، حتى مضى يرغم رجال الدين . على إصدار قرارات يتّهمون فيها غيطشة بكلّ شر ، ويصورونه للناس بصورة جبّار ظالم . أراد بالناس وبالكنيسة كلّ أذى ، وأنّ لذريق لم ينهض إلاّ لأنقاذ الناس من شرّه وشرّ أولاده وكلّ مَن كان يلوذ بهم . وقد أجاب رجال الدين طلبه . فحفلت قرارات مجامعهم الدينية في عصر لذريق ، بأسوأ الاتّهامات لغيطشة وبنيه ويهود .

ومصداق ذلك أيضاً . أنّ لذريق قضى معظم أيام حكمه القصير ، يحارب الثائرين عليه في كلّ ناحية . وأنه قام بحملات متتابعة على البشكنس في الشمال ، وطوائف من الثائرين في الشرق والجنوب .

وربما كان من دلائل سوء الحال في عهد لذريق ، أنه كان في حاجة مستمرة مُلحّة للمال ، لأن البلاد كانت مضطربة في أيامه ، لايكاد يطيعه في نواحيها إلاّ إقليم صغير .

والغالب أن حاجة لذريق إلى المال ، هي التي دفعته إلى السّطو على الذّخائر الغالية ، التي كان ملوك القوط قبله ، قد كدّسوها في كنيستي سان پدرو و سان بابلو ، فقد جرت عادة كلّ ملك منهم أن يودع إحدى الكنيستين تاجه و بعض ذخائره ، وكانت هذه الذخائر مكدسة في حجرتين مغلقتين في الكنيستين ؛ فلما اشتدت حاجة لذريق للمال ، حدثته نفسه بأخذ بعض هذه الذّخائر ، للانتفاع بها . وقد حذره القُسس من أن يفعل ذلك ، ولكنّه لم يصغ ، ومضى ففتح مستودع الذخائر . ويبدو أنه ذهل من كثرة ما وجد من الذهب والجوهر ، فلم يجرؤ على أخذ شيء ، لأن رهبة المكان منعته من أن ينفّذ ما أراد . وتحدّث الناس في ذلك وتناقلوه ، حتى أصبح أسطورة في أفواه الناس ، ورواها المسلمون على صورة لا تخلو من طرافة (١٧) .

وقد استطاع لذريق ، أن يقضي على كلّ أمل لأبناء غيطشة وأنصارهم ، بعد أن استمرّ يوالي غزوهم أشهراً متتابعة ، فاستتبّ له الأمر من ناحيتهم ، وأوشك أن يستتب له الأمر في سائر البلاد .

د ـ احوال اسبانيا تحت حكم القوط :

لم يغيرّ القوط شيئاً كثيراً من أحوال المجتمع الأسباني في العصر الروماني : ظلّت الأرستقراطية الرومانية القديمة على عهدها من الغنى والسّيطرة على الناس ، وظلّ الأحرار من أهل المدن والتجار وأصحاب المزارع الصغيرة يعيشون تحت رحمة الأقوياء في حال هي وسط بين الحرّية والرقّ ، وظلّت بقية أهل البلاد رقيق أرض او عبيداً يشقون في سبيل الأقلية الغنية المسيطرة . وقد ائتلف الأغنياء مع القوط ، لكي يحتفظوا بأملاكهم ، واستقرّ نفر كبير من هؤلاء بالمزارع ، واشتغلوا بالزراعة ، وإن بقيت أغلبيّتهم تقيم في المدن في معسكرات تعيش على إتاوات وضرائب فرضوها على الزرّاع وضعاف أهل المدن ، حتى ساء أمرهم كثيراً .

(١٧) نفح الطيب (١/٢٤٧ ـ ٢٤٨) ، وقد اورد معظم مورخي المسلمين هذه الأسطورة ، وانظر : Saavedra. op. cit. PP. 40 — 43.

ولم يكن القوط كثيرين ، ولم يكن بهم ميل إلى المشاركة في صناعة أو زراعة ، فظلّوا غرباء عن البلاد في الغالب ، ولم يخلّفوا فيها من الآثار بما يمكن مقارنته بما خلّفه الفرنجة في فرنسة مثلا .

ولم تنعم البلاد في حكم القوط بنصيب كبير من الطمأنينة والرخاء ، لأنّ العصر كلّه كان عصر اضطراب وفوضى في أوروبة كلّها لا في إسبانيا وحدها . وانهارت في نواحي غرب أوروبة قواعد المجتمع الروماني الثابت القديم ، الذي يقوم على تقسيم الأرض بين الدولة وطائفة من كبار الأغنياء المقيمين في الريف ، ثم تأجيرها بعد ذلك للفلاحين يزرعونها ويؤدّون عنها مالاً . وكان معظم الأرض تابعاً للدولة ، فكانت تزرعه بوساطة الفلاّحين الأحرار أو العبيد . فلما طال الزّمن ، واستمرّ كلّ فلاّح يزرع نفس القطعة من الأرض سنة بعد سنة ، نشأت بينه وبينها صلة هي أقرب ما تكون إلى صلة الملكيّة . فلما أقبل البرابرة ، واستولوا على أرض الدولة ، آلت إليهم أملاكها ، وبهذا تعرّض حقّ هؤلاء الزرّاع الأحرار في أرضهم للضياع ، وغصب البرابرة من الكثير منهم أرضه واستقرّوا فيها . وأجبروه على زراعتها ، كأنه عبد لهم أو قنّ ، ولجأ بعضهم إلى مالك غني مجاور تنازلوا له عن أرضهم في سبيل حمايتهم من الغاصبين القادمين . وشاعت هذه الطريقة وعمت . ونشأت عنها طبقة اجتماعية جديدة ، هي طبقة المحميين (buccellarii) . وكان القانون يعتبرهم أحرارا ، ولكن التزاماتهم حيال الأغنياء الذين كانوا يحمونهم ، جعلتهم في الواقع في مراتب التابعين والعبيد .

وأقام القوط في إسبانيا حكومة عسكرية انتخابية ، يؤيّدها الأشراف وملاّك الأرض من القوط وأهل البلاد الأصليين على السواء . واستمرّوا يدبّرون شؤون البلاد بنفس النظام الروماني القديم : ظلّت البلاد مقسمة إلى أقاليم ومدن ، وكان يحكم كل إقليم دوق ، وكل مدينة كونت ، وكان كلّ من هؤلاء الحكام يستعين بطائفة صغيرة أو كبيرة من الموظفين ، يقومون بما تحتاج إليه حكومة الناحية ، في النواحي المالية والقضائية والحربية ، وكان هؤلاء الموظفون طبقات ، تختلف بحسب العمل الذي يقوم به كلّ منهم .

وكان الملك يحكم حكماً استبدادياً ، أي منفرداً برأيه ، يقضي في شؤون البلاد كما يشاء . وكان له مجلس من النبلاء ، يساعده في كلّ شيء ، ولكنّ الملوك استبدوا بالأمر حتى لم يعد لهذا المجلس ظلّ من السلطان ، فكان الملوك يصدرون القوانين وينفذونها . ويقضون في الأحكام بما يريدون . وكان المفروض أن يُنتخب الملك من بين هؤلاء النبلاء ، ولكنّ العادة جرت أن يعتلي العرش أقواهم بحدّ السيف (١٨) .

هـ ـ مجلس طليطلة :

ولكن كان للدولة القوطية نظام طيّب ، له أثر حسن في سير الأمور في دولة القوط ، هو نظام : (مجلس طليطلة) الذي كان يجتمع بين الحين والحين ، للنظر في أمور الدولة الكبرى . وكان أصل هذا المجلس دينياً ، إذ كان مجلساً من كبار القساوسة الكاثوليك ، يعقدونه للنّظر في أمر كنيستهم ورعاياها ، فلما اعتنق ملوك القوط الكاثوليكية في عصر ريكاريدو ، أصبح هذا المجلس رسمياً يدعو الملك بعقده ، ويحضره كبار رجاله ، وأصبح مع الزمن مجلساً سياسياً دينيا ، يتناول المسائل جميعاً : دينية وغير دينية ، ويصدر القوانين والأحكام في شتى القضايا ، ثم اتّسع سلطانه وتناول القضاء وأصبح بذلك محكمة عليا ، وانتهى الأمر بأن انضمّ مجلس النبلاء إلى المجلس الديني وأصبحا مجلساً أعلى للدولة . وقد كان الملوك أوّل السّاعين في توحيد المجلسين ، لأنّهم أرادوا أن يزيدوا أحكامهم قوّة ومهابة ، بالتّصديق عليها من هذه الهيئة التي تضمّ كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية وكبار أهل الدولة . (١٩)

---

(١٨) Ballestaras. op. cit. P. 39 — 40.

(١٩) Ballesteron. op. cit. P. 40.

وقد كان لهذه المجالس تأثير أحسن ، فقد سنّ أعضاؤها مع الزّمن قانوناً شاملاً يضمن حريات النـــاس ويســـوى بينهم : قوطاً وإسبانيين ، وهو المسمى : (Fuero Juzg o) (٢٠) ، وكان لتشريعاته الأخرى أثر طيب في تهذيب نفوس القوط وتهيئتهم للعيش المستقرّ والائتلاف مع أهل البلاد ، واستطاع رجاله كذلك الحيلولة بين الملوك وبين الاستبداد السيىء المطلق بشؤون الرعيّة .

و ـ المجتمع الأسباني ايّام السقوط :

والخلاف شديد بين المؤرّخين حول أحوال المجتمع الأسباني خلال هذا العصر القوطي . فمعظم الأسبان شديدو العصبيّة لهذا العصر ، يذهبون إلى أن الناس كانوا يستمتعون فيه برخاء ظاهر في كلّ ناحية من نواحي الحياة ، وأنّ الزرّاع والصنّاع كانوا في رفاهية ، ولا يظلمون، وأن موارد البلاد في ازدياد مستمر ، وأن العصر على العموم كان عصر نهضة إسبانية مسيحية . وهم إنّما يبالغون هذه المبالغة لكي يؤكدوا أن النهضة التي حدثت في ظلال الأسلام بعد ذلك لم تكن شيئاً جديداً على البلاد ، وأن فضلها لا يعود إلى المسلمين وحدهم ، وإنّما كانت البلاد سائرة في طريقها على أي حال .

---

(٢٠) عن اللاتينية Forum Judicum (القانون القوطيّ) اى مجموعة القوانين القوطيّة ، وقد تكون في مدى قرن ، وقد بداه يوريك ، ثمّ اضاف اليه خلفه الاريك الثانى مجموعة من القوانين الرومانية تسمى : (Breviarum) وهو مختصر القوانين التى كانت تطبّق على الرومان ، ويعزى الى شندا سفنتو الفضل فى مزج المجموعتين معاً وتكوين مجموع متناسق منهما يطبّق على الناس اجمعين . وهو مجموعة قانونية شاملة لها قيمة تشريعيّة عظيمة ، ولو طبّقت على الناس ، لكانت سيرة القوط في اسبانيا سيرة اخرى .

Maurice LeGendre, Nouvelle Histoire d' Espagne. pp. 73. sqq.

انظر فجر الأندلس (٢٤) الفقرة (١) .

أما حقيقة الحال ؛ فكانت بعيدة جداً عما يذهب إليه هؤلاء المؤرخون ، فلم يكن الحال بدرجة من السوء بهذا الشكل الذي يصوره دوزى في كتابه ، ولكنّه كان سيئاً على كلّ حال ، ولا يقارن بحال بما وصلت إليه البلاد من الرفاهيّة والرقى في عصور المسلمين . وذلك هو الرأى الذي يميل إليه المؤرخون المنصفون من الأسبان أنفسهم ، بعد أن تجلّت مظاهر الحضارة الأسلامية الأسبانية ، وأصبحت أوضح من أن يمارى بها أحد أو يفضل عليها نظاماً اجتماعياً مضطربا كنظام المجتمع القوطي الأسباني قبل الفتح الأسلامي (٢١) .

وطبيعي ألاّ يستطيع القوط إنشاء مجتمع جديد خير من المجتمع الروماني القديم ، إذ لم يكن لهم هم أنفسهم نظام اجتماعي مقبول . قبل أن يدخلوا الدولة الرومانية ويستقرّوا في أرضها ويقتبسوا نُظُمها ، ولكن ذلك لا يمنع من أن يكونوا قد أنعشوا المجتمع الروماني المضمحلّ ، وأدخلوا عليه عناصر جديدة نشيطة ، توجّهه توجيهاً جديداً .

وينبغي أن نقول أيضاً ، إنّ القوط ، كانوا أقلّ إنسانية ونظاماً من طوائف البرابرة الأخرى ، التي استقرت في إسبانيا ، حتى الفاندال أنفسهم ، لأنّ الفاندال كانوا لا يبهظون البلاد التي ينزلون فيها ، بتكاليف حكوميّة ضخمة ، تريد أن تستقصى كلّ شيء ، ونتشبّه بالرومان : كانوا يزيلون النِّظام القديم بمحاسنه ومساوئه ، أما القوط فقد احتفظوا بمساويء هذا النظام ، وأضافوا إليه مساوئهم ، فعمّ ضررهم الجميع ، من المزارع الصغير ، والقنّ الفقير ، إلى الغنى صاحب الضياع ؛ ولم يتدخل الفندال أو السوييف في مسائل الناس الدينية ، أما القوط فتدخّلوا واضطهدوا مخالفيهم كما رأينا . فعمّ بلاؤهم الناس أجمعين (٢٢) .

---

(٢١) Dozy. Musulmans d' Espagne, 1, pp. 258 — 259.

(٢٢) Dozy. op. cit. 1, P. 258.

ولم يعمل القساوسة شيئاً لتحسين حال الناس ، ولم يحاول أحدهم أن يعترض على ما كان الأغنياء يسرفون فيه من الاستبداد بالضعفاء والاستكثار من العبيد ، وكان عدد العبيد كبيراً جداً ، وكان الأغنياء يقتنونهم بالآلاف ، ويعاملونهم معاملة قاسية كأنهم بعض المتاع ، وقد يئس هؤلاء المساكين من كلّ إنصاف من جانب الحاكمين أو من جانب رجال الدين ، وباتوا يترقبون الخلاص (٢٣) .

ولم يكن أوساط الناس من أهل المدن والصنّاع وأحرار الزرّاع أحسن حالاً ، لأنّ ملوك القوط لم يلتفتوا إلى شيء يعود بالخير على عامة الناس ، ولم يؤثر عنهم إنشاء قنطرة أو تعبيد طريق أو وضع قانون يخفّف عن الناس مظالم الحكّام أو يجعلهم في مأمن من الظلم والعدوان ، وقد كانوا هم أنفسهم أبعد الناس عن أي لون من هذا التفكير .

ويضاف إلى هذه المساوىء الاضطهاد الديني بألوانه : اضطهاد القوط للكاثوليك حين كانوا أريسيين ، ثمّ اضطهادهم لليهود على النحو الذي رأيناه في أيام لذريق ، مما جعلهم يميلون إلى الخلاص من حكم القوط ، وقد اتهمهم القوط بالتآمر على سلامة الدولة مع قوم خارج إسبانيا ، لكي يسوّغوا عسفهم بهم ، والغالب أنّ رجال الدين الكاثوليك كانوا هم المحرّضين على هذا الأضطهاد ، ولو أن يهود إسبانيا كانوا على اتصال بيهود إفريقية وبيهود أوروبة أيضا ، عداوة للقوط وللكاثوليك ، ومحاولة لألحاق الأذى بهم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وحينما تقادم العهد بالقوط في إسبانيا ، وتمتّعوا بخيراتها الوفيرة ، مالت بهم نفوسهم إلى الدّعة ، وجعلوا يكلون أمور الحرب إلى عبيدهم ، حتى زاد عدد العبيد على عدد الأحرار في الجيش . ويبدو أنّ الحروب

(٢٣) Dozy. Musulmans d, Espagne, 1, P. 265.

المتعدّدة بين ملوك القوط ونبلائهم ، هي التي حفّزت هؤلاء الملوك إلى الاستكثار من هؤلاء العبيد في الجيش ، لأن اعداد محاربي القوط القليلة توزّعت بين الملوك والثائرين ، وكانت كثرة العبيد في الجيش من أسباب ضعفه ، لأنهم كانوا ساخطين على الدولة ، ينتظرون الفرصة للتخلي عنها وتركها لمصيرها (٢٤) .

ز ـ الحالة الثقافية :

لابد من الأشارة إلى حال الثقافة بألوانها في البلاد قبل الفتح الأسلامي ، فهذه هي الناحية الوحيدة التي سيجد فيها المسلمون أساساً طيّباً يزيدون عليه . وقد كانت إسبانيا منذ فجر التاريخ بلد ثقافة وموطن علم وفنّ ، وضع الفينيقيّون أساس ذلك كلّه ، وزاد عليه اليونان والرومان . ثم أقبلت المسيحية فأنعشته وسارت به خطوات إلى أمام . ولعلّ في هذا بعض ما يفسّر لنا سرّاً من أسرار الازدهار الفكري السريع الذي حققه المسلمون في إسبانيا ، على قلّة اتصالهم بمنابع الثقافة القديمة والوسيطة في العالمين المسيحي والأسلامي .

لقد تأصّلت المسيحية في إسبانيا بأسرع مما تأصلت في فرنسة مثلا ، فلم يكد القرن السادس الميلادي يهلّ . حتى كانت البلاد تفيض بالأديرة يقيم فيها الرّهبان يدرسون ويتذاكرون ، والكنائس يقوم بأمرها قُسس معنيون بالدرس مشغوفون بالكتابة والتأليف .

وقد تركت أيام القوط في إسبانيا قبل الفتح الأسلامي آثاراً في الدراسات الدينية المسيحية بخاصة والأخلاقية مقتبسة من الأفكار اليونانية والرومانية على الأكثر ، والتاريخية التي تفسرّ التاريخ تفسيراً دينياً مسيحياً ، والأدبية .

ولم يخلّف القوط في الفنون إلاّ ثروة معمارية فقيرة جداً ، وينسب بعض مؤرخي الفنون العقد المخمسّ إلى القوط (٢٥) .

(٢٤) Dozy. Musulmans d' Espagne, 1, P. 269.

(٢٥) Ballestexos. op. cit. P. 51.

وخلاصة القول ، إن إسبانيا القوطية ، لم تكن شرّاً كلّها ، كما يذهب قسم من المؤرخين الفرنسيين والعرب ، ولم تكن خيراً كلّها ، كما يزعم الأسبان ، وإنما كانت جوانبها الأجتماعية ضعيفة جداً ، بل تُعدّ امتداداً للعصر الروماني المضمحل . لأن القوط أنفسهم كانوا قبائل متبدّية ، لاتملك من الأسس الأجتماعية ما يعينها على تنظيم بلد واسع كأسبانيا ، ومجتمع منشعب مختلف كمجتمعها الذي ضمّ أخلاطاً من كل صنف . وقد حاولوا أن يتخذوا مظاهر النظام السياسي الروماني ، فلم يوفّقوا . لأنهم كانوا أبعد من أن يفهموه أو يستطيعوا البناء عليه . ولم يصب الناس من وراء ذلك إلاّ شرّ بالغ .

وأما الناحية الفكرية ، فكانت خيراً خالصاً ، لأنّ الذين قاموا بها كانوا من الأسبان الأصليين بعد أن اعتنقوا المسيحية وتأثّروا بها ، فلاعجب أن يظهر من بينهم بعض العلماء ، لأنّ البلد كان قبل ذلك موطن حضارة فكرية وفلسفة باقية الأثر في عهود الرومان .

لقد سبقت إسبانيا المسيحية أوروبة الغربية كلها في هذه الناحية (٢٦) ، كما ستصبح إسبانيا الأسلامية المركز الأول للأشعاع الحضاري في أوروبة ، كما اعترف بذلك المفكرون الأجانب كافة ، فقد كانت إسبانيا المسلمة عاملاً من العوامل الأساسية ليقظة أوروبة . يوم كانت أوروبة في ظلام دامس . فكان فضل الأسلام على الحضارة الأوروبية فضلاً عظيما .

١ ـ شخصيته يلّيان :

كانت مدينة سَبْتَة وما يجاورها . تُحكم من قبل حاكم مسيحي يدعى : يُلْيان (جوليان ، يوليان ، وليان ، بليان ، إليان ، جليان) كانت له عدّة وقوّة . لم ير لها موسى بن نُصَيْر مثيلاً من قبل (٢٧) . فقد هاجم موسى

(٢٦) فجر الأندلس (٢ ـ ٣١) .
(٢٧) اخبار مجموعة (٤) .

سبتة ، ولكنه لم يتمكن من فتحها ، فعقد الصلح مع يليان حاكم المدينة ، وأقره في منصبه ، مقابل اعتراف الأخير بالفتح الأسلامي (٢٨) .

وقد شجّع يليان موسى بن نصير وطارق بن زياد على فتح الأندلس ، كما عاون المسلمين في الفتح ، وكان له نشاط واضح قبل الفتح وفي أيامه . وسيرد ذكر تفاصيل نشاطه في سِيَر قادة الفتح .

والاختلاف بين الباحثين في أمرين : الأول في شخصية يليان ، والثاني في الأسباب التي حملته على تشجيع موسى وطارق على الفتح ،ومعاونة الفاتحين لأنجاز الفتح .

والروايات متناقضة حول شخصيةيليان،فيقال:إنه مسيحي من إفريقية(٢٩)، وقيل : إنه مسيحي من بربر غمارة (٣٠)،وقيل : إنه رومي (٣١)، وقيل : قوطي من أتباع ملك إسبانيا (٣٢) .

وجاء المؤرّخون الأجانب المحدثون ، فحقّقوا شخصية يُلْيان ، فأثبت قسم منهم وجوده فعلاً ، بعد أن كان قسم منهم قد ذهبوا إلى أنه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب(٣٣).وجاء من بعد مَن أثبت وجوده ، وهو مؤرّخٌ إسباني

---

(٢٨) ابن خلدون (٤٣٧/٦ ــ ٤٣٨) وأخبار مجموعة (٤) ونفح الطيب (٢٣٠/١) .

(٢٩) Chr. 754, P. 150, No. 40.

(٣٠) ابن خلدون (٤٣٧/٦ ــ ٤٣٨) والسلاوى (٦٥/١) و . Codera, Vll, PP. 45 - 94.

(٣١) الأحاطة (برواية ابن القوطية) ــ (١٠٠/١) وابن الكردبوس (٤٢) وابن الأثير (١٠٦/٤) والمراكشى (٦) والبيان المغرب (٢٦/١) والنويري (١٤/٢٢) .

(٣٢) ابن عبد الحكم (٢٠٥) وأخبار مجموعة (٤) وفتح الأندلس (٢ ــ ٣) وابن الكردبوس (٤٢ و ٤٤) وابن الشباط (١٠٥) والبيان المغرب (٢٠٣/١) و (٦/٢ ــ ٧) والحميرى (٧) ونفح الطيب (٢٥١/١) .

(٣٣) Dozy ... Recherches (3 ed.) 1, PP. 57 sqq.

أثبت أصله والدور الذي قام به هو واولاده (٣٤) ،وقد ذهب هذا المؤرخ إلى أن يليان فارسي الأصل ، وأنه من الأزارقة . وقد استنتج ذلك من أنّ يليان خلّف ولداً اسمه : بَلْكايِش ، أسلم بعد الفتح ، وحسن إسلامه ، وبلكايش اسم من أسماء الفُرس الأزارقة .

أما المؤرخون العرب والمسلمون ، فتابعوا المؤرخين الأجانب على الأكثر . ولم يروا رأياً جديدا .

ويليان مسيحي بلا خلاف ، وليس من بربر غمارة ، وبقاؤه مدة طويلة في سبتة بين البربر جعل بعض المؤرخين يتوهم أنه من البربر ، وهو ليس منهم . لأن مَن كان مسيطراً على شمالي إفريقية في حينه لا يولي على البربر بربرياً ، خوفاً من انحيازه إلى قومه وتحيزه لهم على الأجنبي . وقائمة حكام الروّم على الشمال الأفريقي تثبت أن الحكام جميعاً بدون استثناء ، لم يكونوا من البربر . أما الذين زعموا أن يليان قوطي ، فلا سند لهم ، لأننا نعلم بأنّ القوط الغربيين فقدوا معظم ممتلكاتهم في شمالي إفريقية منذ أيام الملك (Theudis) (٣٥) —(٥٣١—٥٤٨ م) . ولقد كانت سَبْتَة بأيدي البيزنطيين منذ منتصف القرن السابع الميلادي . ولا توجد هناك أية إشارة الى وقوع ما يخالف ذلك (٣٦) . ولهذا يمكن استنتاج أنّ يليان كان الحاكم البيزنطي العام لولاية موريطانيا الطنجية (Mauretania Tingtana) وهو إقليم كان في ذلك الحين تابعاً للدولة البيزنطية لا لأسبانيا القوطية ، وأنّ يليان

---

(٣٤) Saavedra, PP. 48. وهذه سلسلة سلالة يليان بعد الفتح بحسب ماتذكره الروايات الاسلامية : يليان ← بلكايش ، عبدالله ، الحكم . سليمان ، ايوب (توفى سنة ٣٢٦ هـ) ، سليمان (توفى سنة (٣٧٩ هـ) ، احمد (توفى سنة ٣٨٨ هـ) . وقد اشتهر الثلاثة الاخيرون بصدق الاسلام وسعة العلم . انظر فجر الاندلس (٥٣ — ٥٤) — الهامش .

(٣٥) CMH, Vol, 11, P. 163., Shaw, op. cit, P. 222.

(٣٦) Livermore, PP. 191, 245.

كان يقوم بواجبات الحاكم العام (Exarcus) لهذه الناحية من قبل الأمبراطور البيزنطي ، وأنه بدأ ولايته في سن صغيرة (٣٧) ، وأقام في هذه الناحية زماناً طويلا . ولما كانت موريطانيا الطنجية بعيدة كل البعد عن بيزنطية ، ولما كانت أمـور الدولة البيزنطية في ذلك الحين مضطربة اضطراباً لا يمكّنها من الأشراف على ولاياتها القريبة فضلاً عن البعيدة (٣٨) .

ولما كانت تلك الدولة قد خسرت ولاياتها كافة في شمالي إفريقية بالفتح الأسلامي ، ولم يبق منها غير ولاية سبتة وحدها ، لا عون لها ولا سند ، غير الدولة الأسبانية ، فقد تحرر يليان من سلطان الدولة البيزنطية ، وأصبح كالحاكم المستقل في هذه الناحية . وإذ انقطعت عنه الأمدادات من الدولة البيزنطية ، فقد أخذ يوثّق علاقاته بمن جاوره من قبائل البربر . حتى كسب ثقتها وودّها وأصبح كالزعيم لها ، حتى اختلط الأمر على بعض المؤرخين ، فحسبوه من البربر . كما أخذ يوثّق علاقاته بالأسبان ليحظى منهم بالأمدادات التي تعينه على الثبات أمام المسلمين الفاتحين . ولما وصل موسى بن نصير إلى إقليم طنْجة سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٩م) وحاصر مدينة طنجة وفتحها (٣٩) ، سار على رأس جيشه إلى مدائن شط البحر ، وعلى رأسها سَبْتَة ، وعليها يليان ، فقاتله موسى ، ولكنه ألفاه في نَجْدة وقوّة وعُدَّة ، فلم يُطِقْه ، فرجع إلى طنجة ، وأقام هناك بمن معه . وأخذ موسى بالغارات على منطقة سبتة ، والتضييق عليهم ، والسفن تختلف إليهم بالميرة والأمداد من إسبانيا من قِبل ملكها غَيْطَشَة . فهم يذبّون عن سبتة ذباً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة (٤٠) ، فكانت علاقة يليان بغيطشة من أهم أسباب نجاحه في الدفاع عن منطقته وحمايتها . ولكنّ هذه العلاقة كانت علاقة مصلحة متبادلة : مصلحة

(٣٧) ابن الأثير (١٠٦/٤) .
(٣٨) فجر الأندلس (٥٤) .
(٣٩) نفح الطيب (٢١٥/١ و ٢٣٤) .
(٤٠) نفح الطيب (٢٣٤/١) .

يليان . تَلَقّى العون من غيطشة بعد أن حرم من عون القسطنطينية ، ومصلحة غيطشة ، أن تصبح سبتة ومنطقتها الخط الدفاعي الأول عبر بحر الزقاق عن إسبانيا تجاه الفتح الأسلامي ،وكسب هذه المنطقة لأسبانيا في الحاضر والمستقبل ، وما كان تعاون يليان مع القوط الغربيين إلا مضطراً (٤١) .

والمؤرخ الأجنبي الذي زعم أنّ يليان فارسي . لأنه خلّف ولداً اسمه : بْلكَايش . وهو اسم فارسي . فأن زعمه متهافت وغير منطقي ولا معقول ، فكثير من الفرس أسماؤهم عربية ، وكثير من العرب أسماؤهم غير عربية ، وكثير من المسيحيين أسماؤهم إسلامية . وكثير من أبناء المسيحيين أسماؤهم عربية . فلا يصبح الفارسي عربياً ولا العربي فارسياً ولا المسيحي مسلماً استناداً على اسمه او اسم ولده . ولو زعم مثل هذا الزعم مؤرخ عربي أو مسلم . لاعتبر زعمه فضيحة مدوّية .ولسارت بأخبارها الركبان . ولكن المؤرخ الذي زعم ذلك ليس عربياً ولا مسلماً ،بل أجنبي مسيحي،ولهذا غض النظر عنه.

إنّ يليان مسيحي رومي . كان الحاكم البيزنطي العام على ولاية سَبْتَة ، ثم تعاون مع غيطشة حتى مات . فتعاون مع لذريق الذي خلف غيطشة ، ثم تعاون مع موسى بن نصير وطارق بن زياد لأسباب مصلحية بالنسبة للطرفين كما رأينا .

١ ـ يلياون والمسلمون الفاتحون :

منعت مشاكل القوط الغربيين الداخلية بعد رحيل غيطشة سنة (٧٠٨م) أو سنة (٧٠٩م) من الاستمرار في معاونة يليان (٤٣) . فأصبح وحيداً أمام تيار الفتح الأسلامي الجارف . وأصبحت ولايته وحدها هدفاً للفتح ، فلم يكن بأمكانه أن يثبت طويلا .

---

(٤١) أخبار مجموعة (٤) .

(٤٢) Saavedra. op. cit. PP. 30.

(٤٣) Dozy. P. 230 ; Shaw. op. cit. 221 — 222 ; Livarmore. PP. 245 — 246. عبد العزيز سالم ـ تاريخ المسلمين وحضارتهم في الأندلس ـ بيروت ـ ١٩٦٢ ـ (٤٧) .

لقد رأى يليان الولايات البيزنطية في الشمال الأفريقي تنهار واحدة بعد أخرى ، أمام زحف المسلمين الفاتحين ، وكان آخر تلك الولايات ولاية طنجة المجاورة لولايته والتي فتحها المسلمون ، فلم يبق أمام يليان غير التعاون مع المسلمين الفاتحين ، ليبقى في منصبه على ولاية سبتة ، وإلاّ فأن المسلمين قادرون على فتح ولايته عَنْوة كما فتحوا غيرها من الولايات ، ولن يطول انتظار يليان ليرى مصير ولايته المتوقّع الذي لاشك فيه .

إنّ حرمان يليان من عون ملك القوط ومعاونته ، هو السبب غير المباشر لتقرّبه من المسلمين الفاتحين وتعاونه معهم ومعاونته لهم .

ولسنا نعرف شيئاً عن الأسس التي ارتكز عليها السلام بين يليان والمسلمين الفاتحين ، وكلّ ما نعرفه أن طارق بن زياد حاول فتح سبتة كما حاول موسى قبله ، فلم يستطع فتحها عَنْوة ، فاكتفى بالتودّد إلى يليان ومجاملته ، وفجأة سلّم يليان سبتة للمسلمين الفاتحين صلحاً ، وشجّعهم على فتح الأندلس ، وعرض عليهم معاونته لهم وتعاونه معهم من أجل تحقيق الفتح .

والمصادر الأسلامية تذكر سبباً مباشراً لأستسلام يليان وتشجيعه على فتح الأندلس ، وتعاونه مع المسلمين الفاتحين لتحقيق الفتح .

فقد ذكرت . أنه كان من سِيَر أكابر العجم بالأندلس وقوّادهم ، أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتّنويه بهم ، إلى بلاط الملك الأكبر بطُلَيْطلة ليصيروا في خدمته . ويتأدبوا بأدبه . وينالوا من كرامته ، حتى إذا بلغوا ، أنكح بعضَهم بعضاً استئلافاً لآبائهم ، وحمل صَدُقاتهم ، وتولّى تجهيزَ إناثهم إلى أزواجهنّ . واتفق أن فعل ذلك يُلْيَان عامل لُذَريق على سبتة . وكانت يومئذ في يدِ صاحب الأندلس ، وأهلها على النّصرانية ، فركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه . فلما صارت عند لُذَريق وقَعَت عينُه عليها فأعجبته وأحبّها حبّاً شديداً ، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضّها . واحتالت حتى أعلمت أباها بذلك ، سراً بمكاتبة خفيّة ، فأحفظه شأنها جداً ، واشتدت حميّته . وأقسم ليزيلنّ سلطانه . وليحفرنّ تحت قدميه . فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الأندلس .

ثمّ إنّ يليان ركبَ بحر الزقاق من سَبْتَة ، في أصعب الأوقات . في يناير(٤٤) قلب الشتاء . فصار بالأندلس . وأقبل إلى طُلَيْطلة نحو الملك لذريق . فأنكر عليه مجيئه في مثل ذلك الوقت . وسأله عمّا لديه ، ولِمَ جاء في مثل وقته ؟ فذكر خيراً . واعتلّ بذكر زوجته ، وشدّة شوقها إلى رؤية بنتها التي عنده . وتمنيها لقاءها قبل الموت . وإلحاحها عليه في إحضارها . وأنّه أحب إسعافها . ورجا بلوغها أمنيتها منه ، وسأل الملك إخراجها إليه ، وتعجيل إطلاقه للمبادرة بها ففعل . وأجاز الجارية ، وتوثق منها بالكتمان عليه ، وأفضل على أبيها . فانقلب عنه . ولما ودّعه قال له لذريق : « إذا قدمتَ علينا . فاستفره لنا من الشّذانقات (٤٥) التي لم تزل تُطرفنا بها ، فأنّها آثر جوارجنا لدينا » . فقال : « أيها الملك ! وحقّ المسيح لئن بقيتُ لأُدخلنّ عليك شُذانقات ما دخل عليك مثلها قط » . عرّض له بالذي أضمره من السعي في إدخال العرب عليه ، وهو لا يَفْطِن .

ولم يتنهنه يليان ، عندما استقر بسبتة عمله ، أن تهيّأ للمسير نحو موسى ابن نُصَير الأمير . فمضى نحوه بأفريقية ، وكلّمه في غزو الأندلس ، ووصف له حسنها وفضلها . وماجمعت من أسباب المنافع . وأنواع المرافق ، وطيب المزارع . وكثرة الثمار . وغزارة المياه وعذوبتها ، وهوّن عليه مع ذلك حال رجالها . ووصفهم بضعف البأس وقلّة الغناء ، فشوق موسى إلى ما هناك . وأخذ بالحزم إلى ما دعاه إليه يليان (٤٦) .

---

(٤٤) يناير اسم الشهر (Enero) : وهو شهر كانون الثاني (يناير) . اول شهر من اشهر السنة ، ويكون في وسط الشتاء .

(٤٥) الشذانقات : الصقور او الشواهين ، انظر معجم متن اللغة (٣/٢٩٤) .

(٤٦) نفح الطيب (١/٢٥١ ـ ٢٥٣) .

ولكن بعض المؤرخين المحدثين ، وعلى رأسهم قسم من المستشرقين ، يرون أنّ قصة ابنة يليان في بلاط طليطلة محض أسطورة ليس لها أساس من الواقع ، وقد شايعهم قسم من المؤرخين العرب والمسلمين في هذا الرأى (٤٧). ولعلّ هناك ما يسوّغ التّشكيك في هذه القصة من مؤرخي الأجانب والمستشرقين، والهدف من هذا التشكيك واضح ومعلوم ومفهوم ، ولكن متابعة المؤلفين العرب المسلمين للأجانب في هذا التشكيك في هدفه غير واضح ولا معلوم ولا مفهوم! ومن المعروف أنّ مؤرخي الأجانب وبخاصة المستشرقين منهم ، شككوا في وجود شخصية يليان أصلا ، وذهبوا إلى أنه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب — كما ذكرنا ذلك قبل قليل — فتابعهم في هذا التّشكيك قسم من من مؤرخي العرب والمسلمين تقليداً وعلى غير هدى وبصيرة . حتى إذا حقّق قسم من المؤرخين الغربيين شخصية يليان ، وأثبتوا وجودها فعلاً بشكل قاطع جليّ ، عاد المقلّدون من مؤرخي العرب والمسلمين إلى متابعة الغربيين من جديد ، فكانوا في كلا الحالتين مقلّدين ، ينقلون آراء الأجانب بلا تدقيق ولا تمحيص .

وقصة ابنة يليان ، هي الأخرى ، تنتظر مَن يحقّق وقوعها من المؤرخين الغربيين ومن المستشرقين ، لتصبح حقيقة لاشك فيها بالنسبة لبعض مؤرخي العرب والمسلمين المحدثين ولا تبقى أسطورة من الأساطير .

---

(٤٧) قارن : Sanvedra. PP. 58 — 59 ، وفجر الأندلس (٥٩ — ٦٠) ومحمود مكى — ملحمة آخر ملوك القوط — المجلة (٣٠ — ٣٥) — العدد (٧٤) — ١٩٦٣ ، ومحمد عبد الله عنان — دولة الأندلس (١/٣٥ — ٣٧) والفتح والاستقرار العربى والأسلامى فى شمال افريقيا والأندلس (١٦٠) .

ولا أرى أن مثل تلك القصة لا يمكن حدوثها في كل زمان ومكان ، وبخاصة في تلك الأيام : في ذلك المحيط ، الذي اتّسم بالانحراف فأصبح قاعدةً في القوط بعكس الاستقامة التي أصبحت استثناءً فيهم . كما أنّ ردّ الفعل الذي أظهره يليان ليس مستغرباً من أب تجاه انتهاك عرض ابنته قسرا ، كما أن ذكرها في حشد من المصادر المعتمدة يوثّق حدوثها ويؤيد وقوعها ، ولا عبرة بالمصادر العربية القليلة التي لم تتطرّق إليها اختصاراً أو لأسباب أخرى ، إذ لو كان مؤلفوها لا يصدّقونها لأبدوا رأيهم فيها ، ولكنهم لم يفعلوا (٤٨) . ومثل هذه القصة تكرّرت كثيراً في محيط الواقع ، ولا تزال تتكرر حتى اليوم (٤٩) . وأكثرنا سمع أمثالها ، فلماذا لا نكذبها ، ونكذّب قصّة ابنة يليان ، لأن مصادرها المعتمدة عربية إسلامية ؟ !

ولست مع الذين يشككون في هذه القصة ، وأراها السبب المباشر لتعاون يليان مع المسلمين . ولكنني لا أراها السبب الرئيس ، بل السبب الرئيس هو هو أنّه كان يتلقى من غيطشة الأمدادات عَدَداً وعُدَداً ، مما سهل عليه الدفاع عن ولايته . فلما حرمه لذريق من تلك الأمدادات بسبب مشاكله الداخلية . استاء من هذا التوقف . وبدأ بالتعاون مع المسلمين على القوط ، خاصة بعد ما شعر بقوة المسلمين المتنامية في المنطقة . وإقبال البربر على الدخول في دين الله أفواجا .

ولعلّ مما يعزّز أن تغيرّ وضع يليان : من الدفاع العنيد عن ولاية سبتة ، إلى الاستسلام المفاجيء للمسلمين وتسليم سبتة لهم واندفاعه في معاونته للمسلمين وتعاونه معهم مادياً ومعنوياً على النظام القائم يومها في إسبانيا ، هو هذا الأثر البالغ على نفسيته . بعد علمه بقصة ابنته مع لذريك ، فنسي كلّ شيء إلاّ الانتقام لابنته ممن اقتضها غصبا ، ولنفسه ممن أساء إليه في سمعته وشرفه بين الناس .

(٤٨) البلاذرى (٢٣٠ ــ ٢٣١) برواية الواقدى ، والبيان الغرب (٦/٢) برواية الواقدى و (٤/٢) برواية عريب بن سعد ، وابن الشباط (١٠٥ ــ ١٠٦) برواية عريب بن سعد .

(٤٩) د . على البارودى ــ حدث فى رحلة الخريف (٦٥ ــ ٦٦) ــ الاسكندرية ــ بلا تاريخ .

فتـــح الأندلس

١ ـ الموقف العام :

أكمل عمرو بن العاص بمعاونة عُقبة بن نافع الفِهري فتح لِيبيَا كلّها سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٥٠) (٦٤٢ م) . وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطّاب : « إنّا قد بلغنا طرابلس ، وبينها وبين إفريقية (تونس) تسعة أيام ، فأن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها ، فعل » ، فكتب إليه عمر ينهاه ويأمره بالوقوف عند هذا الحدّ ، فعاد إلى مصر مكرها بعد أن استخلف على ليبيا عُقْبَة بن نافع الفِهْرِي ، الذي صار . إليه بعد ذلك فتح المغرب (٥١) .

وتولّى عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح القُرشِي العامِرِي (٥٢) مصر خلفاً لعمرو بن العاص ، ففتح إفريية .

وخلفه معاوية بن حُدَيج السَّكوني (٥٣) ، فأكمل فتح إفريقية . وخلفه عُقبة بن نافع (٥٤) ، ففتح حتى المحيط الأطلسي ، ولكن فتحه القريب من المحيط لم يكن فتحاً مستداما ، واستُشهد عقبة في ميادين الفتح .

وخلف أبو المهاجر دينار (٥٥) عقبة بن نافع ، ففتح أبو المهاجر المغرب الأوسط (الجزائر) .

---

(٥٠) ابن الأثير (٣/٢٥ ـ ٢٦) والعبر (١/٢٦) .
(٥١) البلاذرى (٣١٦) واليعقوبى (٢/١٣٤) .
(٥٢) انظر سيرته المفصّلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (١/٥١ ـ ٧٤) .
(٥٣) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (١/٥٧ ـ ٨٩) .
(٥٤) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (١/٩٠ ـ ١٣٦) .
(٥٥) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (١/١٣٧ ـ ١٤٩) .

وخلف زهير بن قيس البلَوِيّ(٥٦)ابا المهاجر ،فعزّز في الفتح إفريقية، وانتصر على البربر انتصاراً سَوْقيّاً ، ولكنه استُشهد في ميادين الفتح .

وخلف حَسّان بن النُّعمان الغساني (٥٧) زهيراً ففتح قَرْطاجَنّة وفاس وانتصر على الروم في معركة سَوْقيّة حاسمة .

وجاء موسى بن نُصَير (٥٨) خلفاً لحسان ، فأكمل فتح المغرب الأقصى وفتح طنجة عَنْوَة وفتح سبتة صلحاً .

وكان فتح طَنْجَة سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٩م) ، وفي هذه السنة مات غيطشة وتولى مكانه لُذريق على الأندلس . وكان على سَبْتَة يُلْيان الذي قاوم بنجاح موسى وردّه عن فتح سبتة بمعاونة غيطشة الذي كان يمدّه بكل ما يحتاج إليه للثبات أمام المسلمين الفاتحين . فلما مات غيطشة ، لم تصل إلى يليان من خلفه الأمدادات . فلم يبق أمامه من خيار غير الاستسلام للمسلمين الفاتحين . فسلّم سبتة صلحاً لطارق بن زياد والي طنجة لموسى بن نصير .

وكان فتح الأندلس . نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب،لأن الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب (٥٩) . ولأن الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الأسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الأفريقي . واستقرار الفتح فيه بانتشار العرب والأسلام في ربوعه . وبوجود القوة الضاربة بيد العرب المسلمين والبربر المسلمين الفاتحين على البر المغربي .

---

(٥٦) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (١/١٥٠ – ١٧٠) .

(٥٧) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (١/١٧٢ – ٢٢٠) .

(٥٨) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المغرب العربي (١/٢٢١ – ٣٠٩) .

(٥٩) المسالك والمحالك للأصطخرى (٣٣) .

وبين الأندلس والبر المغربي الأفريقي الذي فتحه المسلمون بحر المجاز ، عرضه ما بين طنجة والبر الأندلسي ثمانية عشر ميلاً ، وهو عرضه أيضاً بين جزيرة طريف على البر الأندلسي وسبتة على البر المغربي الأفريقي ، ويعرف هذا الموضع بالزقاق . وبحر المجاز هو الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي (٦٠) ، وهذا المجاز هو الذي يفصل بين المسلمين الفاتحين من جهة ، وأهل الأندلس من جهة ثانية ، ولكي يحمي المسلمون ما فتحوه في المغرب من أهل الأندلس والقوط الذين يحكمونها ، كان لابد لهم من فتح الأندلس ، لحماية البر الأفريقي في شمالي إفريقية ، فقد رأينا طَنْجة وسَبْتَة قبل فتحهما تحت حكم الأندلس ، فقد كان يليان عامل لذريق على سبتة (٦١) ، : « ثم ساروا إلى مدائن على شط البحر ، فيها عمال لصاحب الأندلس ، قد غلبوا عليها ، وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن سبتة ، وعليها علج يسمى : يليان ، قاتله موسى . فألفاه في نجدة وقوة وعدّة فلم يُطِقْهُ ، فرجع الى مدينة طنجة ، فأقام بمن معه ، وأخذ بالغارات على ما حَوْلهم والتضييق عليهم ، والسفن تختلف إليهم بالميرة والأمداد من الأندلس من قبل ملكها غَيْطَشَة ،فهم يذبّون عن حريمهم ذباً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة ، إلى أن هلك غيطشة ، فاضطرب حبل أهل الأندلس....»(٦٢) ، هكذا كانت العلاقة وثيقة للغاية بين ولاية سبتة وطنجة وغيرهما مع مملكة القوط في الأندلس ، وكان التعاون بين الطرفين وثيقاً ، ومنذ أقدم العصور : إذا كان الحكم في الأندلس قوياً ، سيطر على المدن الأفريقية المواجهة لساحل الأندلس ، وإذا كان الحكم فيها ضعيفاً سيطر البر الأفريقي على الأندلس أو على جزء منها . والهدف هو حماية الأندلس بالسيطرة على مدن الساحل الأفريقي ، لتكون الخط الدفاعي الأول عن البر الأندلسي ؛ وحماية البر الأفريقي من حكّام الأندلس ، بفتح الأندلس كما فعل المسلمون الفاتحون ، فلابد من أن يكون أحد الطرفين مسيطراً على الطرف الثاني .

(٦٠) نفح الطيب (١/١٤٥ ـ ١٤٦) .
(٦١) نفح الطيب (١/٢٥١) .
(٦٢) نفح الطيب (١/٢٥٠) .

إنّ الهدف من فتح الأندلس ، هو ترصين الفتح الأسلامي في شمالي إفريقية بعامة وفي ولايتي طنجة وسبتة بخاصة .

أما الهدف الثاني من الفتح ، فهو نشر الأسلام في ربوعها وإعلاء كلمة الله فيها . إنّ الفاتحين حملوا إلى الناس الأسلام بالفتح . ولم يحملوا الناس بالفتح على الأسلام .

وقد كان الروم قد اتخذوا من جزيرة صقلّية قاعدة أمامية متقدمة لهم ينطلقون منها للتعرض بالساحل الأفريقي المقابل لها ، فأمر موسى بن نُصير بالتأهب لركوب البحر . وأعلمهم أنّه راكب بنفسه ، فرغب الناس وتسارعوا ، فلم يبق شريف ممن كان معه إلاّ وقد ركب الفُلك . وعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبدالله بن موسى . وأمّره على رجالها . وولاه عليهم ، ثم أمره أن يتوجّه إلى صقلّية . وإنما أراد موسى بما أراد من مسيرة في هذه الحملة ، أن يركب أهل الجلد والحماية والنكاية والشرف . فسميت هذه الغزوة : غزوة الأشراف (٦٣) . وكان ذلك سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م) .

وفي سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٥م) ، أغزى موسى ابنه عبدالله جزيرة سَرْدانية (٦٤) . فغنم وعاد سالماً غانما .

وكانت هاتان الغزوتان لحماية الساحل الأفريقي من غزو الروم من قواعدهم البحرية في هاتين الجزيرتين .

---

(٦٣) الأمامة والسياسة (٢/٧٠ ــ ٧١) .

(٦٤) النجوم الزاهرة (١/٢١٦) ، وانظر العبر (١/١٠٤) وشذرات الذهب (١/٩٨) والبداية والنهاية (٩/٧٧) .

وبعد أن أنجز موسى بن نُصير استعادة فتح المغرب الأوسط ، وأكمل فتح المغرب الأقصى ، وفتح طنجة ، أصبحت السواحل المغربية المواجهة لبعض جزر البحر الأبيض المتوسط وللأندلس ، معرضة لهجمات الروم ، لغرض إستعادة تلك المناطق المغربية الغنية إلى سيطرتهم من جديد ، ومعرضة لهجمات من القوط الذين يحكمون الأندلس ، لغرض إبعاد المسلمين الفاتحين عن بلادهم ، بطردهم من السواحل المغربية القريبة منهم ، وحماية الأندلس من غزو المسلمين المتوقع لها ، ومحاولة فتحها .

وكان من جزر البحر التي اتخذها الروم والقوط قواعد لهم متقدمة : جزيرتا مَيُوْرْقَة ومَنُوْرَقة ، وهما جزيرتان في البحر الأبيض المتوسط ، بين صقلية وشبه جزيرة الأندلس (٦٥) .

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٧م) جهّز موسى ابنه عبد الله ، فافتتح هاتين الجزيرتين (٦٦) ، وغنم ما لايُحصى ، وعاد سالما (٦٧) .

والهدف الأول والأخير ، من تعرّض المسلمين بهذه الجزر ، هو حماية الساحل الأفريقي من هجمات الروم والقوط ، والهجوم أنجع وسائل الدفاع كما يقولون (٦٨) .

وعندما ضعف المسلمون في شمالي إفريقية ، أصبحت تلك الجزر قواعد لأساطيل أعدائهم وحشود قواتهم ،للهجوم على المسلمين ،وأسر نسائهم ورجالهم ، وأخذهم إلى القسطنطينية وغيرها .

---

(٦٥) النجوم الزاهرة (٢١٦/١) ، وانظر العبر (١٠٤/١) وشذرات الذهب (٩٨/١) والبداية والنهاية (٩٩/٩) .

(٦٦) النجوم الزاهرة (٢١٦/١) ، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٣٠٥/١) وابن الاثير (٥٤٠/٤) .

(٦٧) ابن الأثير (٥٤٠/٤) .

(٦٨) انظر تفاصيل هذه الفتوح ، في سيرة : عبدالله بن موسى بن نصير ، في كتاب : قادة فتح الأندلس

إنّ فتح الأندلس ، هو الوسيلة الوحيدة لحماية البر الأفريقي المقابل لها ، والذي كان المسلمون قد فتحوه ، وصارعوا الأهوال من سنة اثنتين وعشرين الهجرية إلى سنة تسعين الهجرية ، أي مدة ثمان وستين سنة ، بذلوا خلالها كثيراً من الجهد والنفقات والشهداء ، على رأسهم قائدان : عقبة بن نافع ، وزهير بن قيس البلوي .

هكذا فتح المسلمون الفاتحون ما فتحوه ، وهكذا حافظوا على ما فتحوه : بالتّعرض والجهاد ، وبفتح جديد يرصّن الفتح القديم .

٢ ـ فتح طريف :

أرسل موسى في شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين الهجرية (آب ـ أغسطس ـ أيلول ـ سبتمبر ٧١٠ م)سرية إستطلاعية إلى جنوبي الأندلس ، ففتح جزيرة طريف والجزيرة الخضراء ، وعاد مع رجاله في رمضان أيضاً سالماً غانما (٦٩) .

٣ ـ فتح طارق بن زياد :

انزل طارق بن زياد قواته في منطقة جبل طارق بوجبتين ، فكوّن المسلمون في تلك المنطقة رأس جسر لقوات المسلمين . وأرسل طارق أحد قادته المرءوسين وهو : عبدالرحمن بن أبي عامر المعافري ففتح مدينة قرطاجَنّة الجزيرة ومدينة الجزيرة الخضراء (٧٠) . وانتصر طارق على جيش لذريق في معركة وادي لَكّهْ الحاسمة . وفتح طارق بعد هذه المعركة شَذُوْنَةَ والمَدُور وقَرْمونة وإشبيليَة واسْتَجَة ، وأرسل مغيثاً الرومي ففتح قرطُبة ، وأرسل سرايا ففتحت مالَقَة وإلْبيْرة وغرناطة وكورة تُدمير وأوريولة ومرسية ثم قصد هو طليطلة ففتحها (٧١) .

---

(٦٩) ابن الأثير (٥٦١/٤) .

(٧٠) تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس (مخطوط) ص (٧٠) ـ على عبدالرحمن بن هذيل .

(٧١) انظر تفاصيل هذه الفتوح في سيرة طارق بن زياد التى ترد وشيكا .

٤ ـ الفتح المشترك بين موسى وطارق :

اولاً : عبر موسى بن نصير إلى الأندلس في شهر رمضان من سنة ثلاث وتسعين الهجرية (حزيران ـ تموز ـ يونيو ـ يوليو ـ ٧١٢ م) ، ففتح موسى قبل لقاء طارق : شَذُوْنَة وقَرْمُوْنَة ورَعْواق وإسْتَجَّة وإشْبِيْلية ومارِدَة ولَقَنْت وطيلطلة . ومن المعروف أن طارقاً سبق له فتح هذه المدن الأندلسية ، فمن المحتمل أنها انتقضت ، فاعاد موسى فتحها من جديد .

ثانيا : وبعد لقاء موسى بطارق ، فتحا معاً بالتعاون بينهما سَرْقُسْطَة وَوَشْقَة ولارِدَة وطَرَّكونَة وبَرْشَلُوْنَة وجِلِّيْقِيَّة وقشتالة القديمة .

٥ ـ فتح موسى بن نصَير :

ثالثا : وافترق جيش المسلمين إلى قسمين : أحدهما بقيادة طارق والآخر بقيادة موسى ، ففتح موسى وحده : بلد الوليد وقلعة لُك وخينخون حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي ، ثم عاد أداراجه إلى طليطلة مع طارق في طريقهما إلى دمشق ، حيث استدعاهما الخليفة إلى دمشق .

٦ ـ فتح مغيث الرومي :

بعد أن فتح طارق مدينة إسْتِجَّة ، بعث سرايا من جنده إلى عدة جهات فبعث جيشاً بقيادة مغيث الرومي لفتح مدينة قُرْطُبة . فاستطاع مغيث فتح المدينة دون مشقة كبيرة .

٧ ـ فتح عبدالعزيز بن موسى بن نصَير :

وجَه موسى بن نصير ابنيه عبدالعزيز وعبدالأعلى إلى جنوبي وجنوبي شرقي الأندلس ، وكان هذا بعد استعادة فتح إشْبيلية ، فاستطاع عبدالأعلى بالتعاون مع أخيه عبدالعزيز فتح مالَقَة وإلْبِيْرة من جديد ، ومن الواضح أنَّ طارقاً سبق له فتحهما ؛ فيبدو أنهما انتقضتا ، فاستعاد فتحهما عبد العزيز وأخوه من جديد .

ثم توجّه عبد العزيز إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد ، فالتقى بالقرب من أُوْريُوْلة بالدوق تُدْمِيرْ حاكم هذه المقاطعة . فصالحه على مدن المقاطعة كلها وهي : أُوْريُوْلة وبَلانَة ولَقَنْت ومُوْلَة وبَسْقَرَة وإِلُة ولُوْرَقَة . فاستعاد المسلمون فتح مدن هذه المقاطعة صلحاً بموجب معاهده (٧٢) .

وفي الوقت الذي كان موسى وطارق يقومان بالفتح في شمالي الأندلس ، كان عبدالعزيز يقوم بفتح وسط البرتغال ، فقد فتح يَابُرَة وشَنْتَرين وقَلْمُرِيَة . وقد فتح المدينتين الأخيرتين صلحا .

٨ ـ فتح عبد الأعلى بن موسى بن نصير :

وجّه موسى بن نصير ولديه عبدالأعلى وعبدالعزيز إلى جنوبي وجنوبي شرقي الأندلس . وكان هذا بعد استعادة فتح إشْبيلية ، فاستطاع عبدالأعلى بالتعاون مع أخيه عبدالعزيز فتح مالَقَة وإلْبِيْرة من جديد ، ومن الواضح أنّ طارقاً سبق له فتح هاتين المدينتين لأول مرة . والظاهر أنهما انتقضتا ، فاستعاد عبدالأعلى وعبدالعزيز فتحهما من جديد .

٩ ـ فتح عبدالله بن موسى بن نصير :

في سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) وجّه موسى بن نصير ابنه عبدالله لفتح جزيرتي مَيُوْرَقَة ومَنُوْرَقة . فاستطاع فتح هاتين الجزيرتين . وعاد إلى قواعده في إفريقية سالماً غانما (٧٣) .

١٠ . فتح السمح بن مالِك الخولاني : فاتَح شطر جنوبي فرنسة ؛ وبخاصة مدينة أريونة .

---

(٧٢) انظر نص المعاهدة في سيرة : عبدالعزيز بن موسى بن نصير في كتاب : قادة فتح الاندلس .

(٧٣) انظر التفاصيل في سيرة عبدالله بن موسى بن نصير في كتاب : قادة فتح الأندلس .

القـــادة وفتـــوحاتهم

التسلسل	القائد	فتوحاته	التـــاريخ هـ	التـــاريخ م	الملحوظات
١	طريف بن مالك	١ ـ جزيرة طريف ٢ ـ الجزيرة الخضراء	٩١ رمضان	٧١٠ آب ـ أيلول أغسطس سبتمبر	
٢	طارق بن زياد	١ ـ جبل طارق ٢ ـ قرطاجنة الجزيرة ٣ ـ بلدة الجزيرة الخضراء ٤ ـ شَذُونَة ٥ ـ قَرْمُونَة ٦ ـ اشبيلية ٧ ـ اسْتَجَة ٨ ـ قُرْطُبة ٩ ـ مالَقَة ١٠ ـ اِلْبِيرَة ١١ ـ غرناطة	٩٢ رمضان	٧١١ م	٢ و ٣ فتحهما عبد الرحمن بن أبى عامر المعافرى ٨ . فتحها مغيث الرومى ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ ، ١٣ ، ١٤ فتحها قادة سرايا طارق .

		١٢ ــ تدمير ١٣ أوريولة ١٤ ــ مرسية ١٥ طليطلة		
	طارق وموسى في فتوحهما المشتركة	١ ــ سَرَقطة ٢ ــ وشقة ٣ ــ لاردة ٤ ــ طَرَّكُونَة ٥ ــ بَرْشلونة ٦ ــ جِلِّيقِيَّة ٧ ــ قَشْتَالَة القديمة	٩٥	
	فتح طارق وحده	١ ــ أمايه ٢ ــ أسترقة ٣ ــ ليون	٩٥	
٣	مُغِيث الرومى	قُرْطُبَة	٩٢	٧١١
٤	السَّمح بن مالك الخولانى	شطر جنوبى فرنسة أَرْبُونَة	١٠٠	

٥	موسى بن نصير	١ ـ شَذُونَة		
		٢ ـ اشْبِيلِيَة		
		٣ ـ قَرْمُونَة		
	قبل لقائه بطارق	٤ ـ رَعْوَاق		
		(١) ٥ ـ ماردَة		
		٦ ـ لَقَنْت		
		٧ ـ استجة		
		٨ ـ طليطلة		
	طارق وموسى في فتحهما المشترك	١ ـ سَرْقُسْطَة	٩٥	٧١٤
		٢ ـ وَشْقَة		
		٣ ـ لاردَة		
		٤ ـ طَرَّكونَة		
		٥ ـ بَرْشَلُونَة		
		٦ ـ جِلِّيقِنْيَة		
		٧ ـ قَشْتَالَة القديمة		
	فتح موسى وحده	١ ـ بلد الوليد	٩٥	٧١٤
		٢ ـ قلعة لك		
		٣ ـ خيخون		
		٤ ـ ساحل المحيط		
٦	فتح عبدالعزيز بن موسى بن نصير	١ ـ فتح اشْبِيلِية (ثانية)	٩٤	٧١٣

فتح ٢ و ٣ بمعاونة اخيه عبد الأعلى بن موسى بن نصير)
المدن من ٤ حتى ١٠ هى ولاية تدمير

		٢ ــ مالقة ٣ ــ البيرة ٤ ــ اوريوكة ٥ ــ بلاتة ٦ ــ لقنت ٧ ــ مولة ٨ ــ بسقرة ٩ ــ الة ١٠ ــ لورقة ١١ ــ اشبيلية ١٢ ــ ماردة ١٣ ــ بابرة ١٤ ــ شنتبرين ١٥ ــ قلمرية		التى فتحها عبد العزيز وصالح عليها تدمير افتح ١٤ و ١٥ صلحا
٧	عبد الأعلى بن موسى بن نصير	١ ــ مالقة ٢ ــ البيرة	٩٤ــ٩٥ ٧١٣ــ٧١٤	فتح المدينتين بالتعاون مع اخيه عبد العزيز .
٨	عبدالله بن موسى بن نصير	١ ــ ميورقة ٢ ــ منورقة	٨٩	٧٠٧ جزيرتان شرقى الأندلس .

عبرة الفتح

١ ـ التوقيت :

كان عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، يفكّر في إقفال المسلمين من الأندلس ، إذ خشِيَ تغلّب العدو عليهم (٧٤) ، ولأنقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين (٧٥) . قيل له : « إنّ المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا » . فعدل عن مشروعه ، « قالوا : وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل ، فأنّ مصيرهم مع الكفار إلى بوار ، إلاّ أن يستنقذهم الله برحمته » (٧٦) . ويبدو أن هذه الأُمنية : « وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل » ، سُجِّلت بعد حدوث ما حدث في الأندلس ، أي بعد أن خسر المسلمون الأندلس ، وخسروا كثيراً من أرواحهم وأملاكهم وكثيراً مما هو أغلى من الأرواح والأملاك .

لقد عبر طارق بن زياد إلى الأندلس فاتحاً في اليوم الخامس من شهر رجب سنة اثنتين وتسعين الهجرية (نيسان – أبريل – ٧١١ م) ، واستقرّ حكم المسلمين في الأندلس ثمانية قرون ، منذ فَتْحِها بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نُصَيْر في تلك السنة . حتى سقوط غَرْنَاطة سنة سبع وتسعين وثمانمائة الهجرية (١٤٩٢ م) .

وقد مرّت الأندلس ، خلال تلك القرون بعدّة عهود ، تَقَلّبت خلالها بين الضعف والقوة ، وهذه العهود بأيجاز هي :

أ . عهد الفتح : الذي استمرّ نحو أربع سنين : ٩٢ – ٩٥ هـ (٧١١م – ٧١٤ م) .

ب . عهد الولاة : من سنة ٩٥ هـ إلى ١٣٨ هـ (٧١٤ م – ٧٥٥ م) ، ويعتبر قسم من المؤرخين عهد الفَتح داخلاً في هذا العهد الذي ينتهي بقدوم

---

(٧٤) افتتاح الأندلس (١٢) .
(٧٥) أخبار مجموعة (٢٣) وفتح الأندلس (٢٤) .
(٧٦) أخبار مجموعة (٢٣) ونفح الطيب (٣/١٥) .

عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) ، وقد حكم الأندلس في هذا العهد الذي استمر نحو اثنتين وأربعين سنة ، عشرون والياً تقريباً ، كانوا تابعين للخلافة في دمشق أو لولاية الشمال الأفريقي : (إفريقية والمغرب) .

جـ . عهد الأمارة : من سنة ١٣٨ هـ – ٣١٦ هـ (٧٥٥ م – ٩٢٩ م) . ويبدأ من قدوم عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس ، حتى إعلان الخلافة من قبل عبدالرحمن الناصر (الثالث) سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) ، وقد أسس عبدالرحمن الداخل إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية ، استمرت مائة وثمانٍ وسبعين سنة .

د . عهد الخلافة : من سنة ٣١٦ هـ إلى سنة ٤٠٠ هـ (٩٢٩ م – ١٠٠٩)، ويبدأ منذ إعلان الخلافة حتى وفاة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦م)، أو حتى الدولة العامرية في نهاية القرن الرابع الهجري (بداية القرن الحادي عشر الميلادي) . فكان عمر الخلافة نحو قرن من الزمان .

هـ . عهد الطوّائف : من سنة ٤٠٠ هـ – ٤٨٤ هـ (١٠٠٩ م – ١٠٩١م). وهو عهد دول أو ملوك الطوّائف ، التي سبقت أعوام الفوضى ، وقد استمر هذا العهد نحو ثلاثة أرباع القرن ، حتى دخول الأندلس سلطان المرابطين .

و . عهد المرابطين والموحّدين : من سنة ٤٨٤ هـ – ٦٢٠ هـ (١٠٩١م – ١٢٢٣ م) حيث دخلت الأندلس اولاً في دولة المرابطين التي تنتهي في حوالي ٥٢٠ هـ (١١٣٤ م) أي أقل من نصف قرن ، وبعد مدة انضوت الأندلس لحكم الموّحدين قرابة قرن من الزمان ، ينتهي في حوالي سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م – ١٤٩٢ م) . ويمكن اعتبارهما عهدين مستقلين (٧٧) .

(٧٧) التاريخ الاندلس من الفتح الاسلامى حتى سقوط غرناطة (٣٩ – ٤٠) .

ز . مملكة غرناطة : من سنة ٦٢٠ هـ – ٨٩٧ هـ (١٢٢٣ – ١٤٩٢ م)
حيث قامت دولة بني الأحمر واستمرت ما يزيد على قرنين ونصف القرن ، حتى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ويمثل سقوطها نهاية الحكم الأسلامي للأندلس وذهاب السلطان السياسي منها . وبقي ملايين من المسلمين . ولكنهم تحملوا عشرات السنوات الكثير من الاضطهاد وعمليات الأفناء التي أتت عليهم في النهاية قتلاً وتشريداً وإذابة . وكادت تأتي على كل ماخلفه المسلمون بأجناسهم من إنتاج حضاري رفيع شمل مختلف الميادين (٧٨) .

٢ – اسباب النصر :

وكان تعداد جيش طارق بن زياد الذي عبر على رأسه من الشمال الأفريقي إلى الأندلس فاتحاً هو سبعة آلاف مجاهد ، وكان تعداد جيشه في المعركة الحاسمة التي خاضها ، فانتصر على القوط الغربيين وقتل ملك إسبانيا القوطي لذريق . اثنى عشر الف مجاهد ، تكبدوا في معركتهم الحاسمة ثلاثة آلاف شهيد(٧٩). أي ربع مجموعة القوة الأسلامية الذين قدموا فاتحين .

واندفاع طارق بهذا العدد القليل من المجاهدين لفتح بلاد واسعة بالتغلب على دولة القوط القائمة لم يكن نزهة من النزهات الترفيهية التي تخلو من الأخطار والمعضلات الجسام ، وانتصار طارق على القوط وفتح الأندلس ليس لأن القوط كانوا ضعفاء في جيشهم وقيادتهم ، كما يحاول أن يزعم المستشرقون ويتابعهم عليها المستغربون ، فالعكس هو الصحيح ، لأن تقاليد القوط العسكرية وشجاعتهم معروفة حتى اليوم ، كما أنّ لذريق ملك الأندلس كان من أبرز قادتهم وأكثرهم كفاية كما يقرر ذلك مؤرخو الأسبان المحدثون . حتى جعلوا منه بطلاً قوميا . كما أن ضعف أمة من الأمم لا يتيح الفرصة لغيرها

(٧٨) تاريخ الأندلس من الفتح الأسلامى حتى سقوط غرناطة (٤٠) .
(٧٩) استفتاح الأندلس (٢٢٢) وأخبار مجموعة (٧) وتاريخ الأندلس (٤٧) ونفح الطيب (٢٥٨/١) .

أن تكون قوية متماسكة بدون مسوّغ ، وما انتصر طارق ومن معه من المسلمين الفاتحين إلاّ لأنهم كانوا مجاهدين صادقين ، قاتلوا قتال أهل العقيدة الراسخة التي جعلت الجهاد فرضاً وجعلت الشهيد حيّاً عند الله يرزق في الجنّة في درجات رفيعة من درجاتها ، كما أن طارقاً قائداً والمسلمين المجاهدين جنوداً ، كانوا يشعرون أنهم ليسوا وحدهم في الميدان ، بل هم في ضمان الأسلام ديناً والمسلمين أمة لا يمكن أن يتخلى عنهم المسلمون أبداً ، فهم في ضمان المسلمين كافة وفي رعاية الله . لذلك كان إقدامهم فذاً عجيبا ، وانتصاراتهم مذهلة مدهشة . بكل المقاييس العسكرية المعروفة .

هذا هو سبب انتصار طارق ورجاله : انتصروا بالأسلام والمسلمين ، فما ينبغي أن ننكر هذا السبب في دراستنا ، مجاملة لأعداء العرب والمسلمين ، أو خشية من أحد . لأن الحق أحق أن يُتبع وأن يُدون وأن يصّرح به وأن يُدافع عنه .

ومن المعلوم . أن الجيش الذي يقاتل في ساحة من ساحات العمليات ، وهو يعلم علم اليقين . أن مصيره جماعات وأفراداً ، لا يهم ذوي قرباهم من المسلمين حسب ، بل يهّم المسلمين كافة في أرجاء الوطن الأسلامي ، من الخليفة المسؤول الأول في المسلمين ، إلى أصغر فرد من أفراد المسلمين ، وأن مصيره لا يغيب عن أذهان المسلمين كافةً ، كما لا يغيب عن أذهان أهليهم الأقربين . هذا الجيش الذي يقاتل بضمان المسلمين جميعاً ، ليس كالجيش الذي يقاتل بدون ضمان ولا تضامن . فالأول يقاتل بمعنويات عالية جداً تتناسب مع ضمان المسلمين له وتضامنهم معه . والثاني يقاتل بمعنويات منهارة ، لأن مصيره ليس موضع اهتمام أحد من المسؤولين وغير المسؤولين . كالشجرة بدون جذور . أو كالبناء بدون أُسُس ، تنهار الشجرة وينهار البناء اليوم أو غدا . ولا يقاوم العواصف والهزات .

وكان للفتوحات الأسلامية بدون استثناء حافزان لا ثالث لهما : الأول هو الحافز الديني ، المتمثل بالجهاد والدعوة إلى الله ، فقد كانت الفتوحات فتوحات عقيدة . أما الحافز الثاني فهو حافز عسكري ، وهو الدفاع عن البلاد المفتوحة ، بفتح البلاد التي يكمن فيها أي خطر على مصير تلك البلاد ، فكان فتح الأندلس هو لحماية شمالي إفريقية من خطر يتهددها من الأندلس في الحاضر أو المستقبل ، حتى لا تصبح قاعدة للعدو ينطلق منها لتهديد الشمال الأفريقي . وقد ثبتت سَبْتَة أمام المسلمين بمعاونة من ملك الأندلس في حينه كما هو معروف (٨٠) .

أما ما يردده المستشرقون ويصدّقه المستغربون من أن : إسبانيا في السنوات الأخيرة التي سبقت الفتح العربي ، عانت من الفوضى والارتباك في الدولة القوطيّة ، نتيجة اغتصاب العرش من قبل لذريق ، حيث واجه وضعاً داخلياً سيئاً للغاية ، فقد كانت الدولة بحاجة ماسة إلى الأموال ، للقضاء على الفتن وحركات التمرد المعادية ، لاسيما في منطقة الباسك . هذا فقد استولى لذريق على خزائن أسلافه في كنيستي سان بيدرو (San Pedro) وسان بابلو (San Pablo) في طليطلة ، مما سبب استياء رجال الدين . ويمكن القول بشكل عام ، إنّ إسبانيا ، كانت تعاني من مشاكل سياسية واجتماعية كبيرة قُبيل مجيء العرب إليها ، وإن جيشها لم يكن بحالة تسمح له بالوقوف أمام الجيش العربي الأسلامي » (٨١) . ومثل هذه التخرصيات لا يصدقها أحد ، لأن لذريق كان من أقوى قادة القوط وأقدرهم ، وقد قضى على التخلف والانحلال باستيلائه على السلطة الضعيفة . كما أن ضعف دولة من الدول ، لا تتيح الفرصة

---

(٨٠) سيرد تفصيل ذلك في سيرة طارق بن زياد ، كما ورد في سيرة موسى بن نصير ، انظر قادة فتح المغرب (١/٢٣٦) .

(٨١) E. Saavedra, Estudio Sobre la invasion - de los Arobes en Espana, Madrid, 1892, PP. 40 - 43.

لغيرها من الدول أن تكون قوية وقادرة على الفتح . وما كان العرب ولا غيرهم من المسلمين كالبربر يطمعون بحماية أنفسهم من القوط قبل أن يصبح البربر مسلمين ، فأصبحوا قوة قادرة بالأسلام وبروح الجهاد الذي بعثه الأسلام في نفوسهم . فأذا كان المستشرقون بروحهم الصليبية والصهيونية يهدفون إلى التقليل من شأن أثر الأسلام في الفتوح والنصر ، لأسباب لا يجهلها أحد ، فما ينبغي للعربي المسلم أن يردّد مزاعم الصليبين والصهاينة ، لأنها مزاعم مغرضة أولاً وخاطئة ثانياً وغير واقعية ثالثاً ، ولا تستقيم مع مناهج البحث العلمي رابعاً وأخيرا ، والعربي المسلم أحرى بالدفاع عن أمته بالحق ، ولا نريد من أحد أن يدافع عن أمته بغير الحق .